

هالة سرحان

أمريكا.. خريطة لنزق

مذكرات طالبة بعثة

دار الشروق

أمريكا.. خط الزق

مذكرات طالبة بعثة

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسهما محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة ١٦ شارع حواد حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
مراكش : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تليكس SHROK UN 97091
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
مراكش ٨٦٧٥٥٥ - تليكس SHROK 20175 LE

مُقدِّمة

بقلم الدكتور فوزى فهمى أحمد

تربطنى بالدكتورة « هالة سرحان » - مؤلفة هذا الكتاب - علاقة «الخوجة» « بالتلميذة » . بدأت منذ سنوات دراستها بأكاديمية الفنون، ولأن ملامح بنيتها الذهنية تدفقت مبكراً، فقد تميزت وتفردت، ولأن بنية الذهن قد تظل مجهولة من قبل صاحبها، فإن من وظيفة «الخوجة» المربى أن يعمق الإحساس بها بمدى مكررة لتنعكس فيها .

لكن هذه الغادة الصغيرة كانت تدرك أيضاً تفرد عقلها، وتمارس العديد من النشاطات بحوية وقدرة على إدراك ما هو مديد يستصعب على النظر لمن في مثل سنّها، وتعيش حياتها بملء الثقة والصراحة، ولديها علامة فارقة تميزها رافقتها في نموها وتطورها، وهى طاقة «تمردّها» ، وأعتقد أن طاقة التمرد هى التى شكلت استقلالها الذاتى،

بل هى سر تلك القوة الحيوية المتعاقبة التى لم تتخل عنها فى مراحل عمرها .

تخرجت وعينت معيدة بأكاديمية الفنون ، وشقت طريقها ، ودفعت إليها بالعديد من الكتب التى تتناول المشكلات من حولنا ، كى توسع تصورهما لما هو ممكن ، وتزيد من طرحها للأسئلة ، وكثرت أسئلتها وصارت عصية على التأجيل وتأجيج وجودها قلقا وتشوفا ، وظننا أن سفرها لبعثتها قد يستوعب ما لم يبد لها كافياً فى إطار حياتها ، وسافرت ، وما بين سفرها وعودتها مساحة من الحياة عاشتها تجلت فيها « طاقة التمرد » أمام غلظة العالم المبتذل ، ورفضها أيضاً أن تكون « مدججة » أو أن تقبع فى غرفة الانتظار مهما كان الباب الذى سيفتح لها ، وألقت لنا استقالتها وسددت كل ما صرف عليها من مبالغ عن بعثتها بامتياز المسئولية الخارقة ، كخلاص لها وضمان لحريتها التى هى لها ألد من مذاق العسل ، وكان تسديدها للدين صك الارتياح والبهجة كى تختار لنفسها طريقها لتنتقل : محض قلم يوقظ الإنسان من تعاسته ويعتقه من القيود ، بإضاءات باهرة بما يعرضه من أشياء مألوفة فى صور غير مألوفة .

ويتميز كتابها الذى بين أيدينا بأنه مجموعة من الصور الدرامية المتراكمة تتوالى وتتصل لترصد « الآخر » مقابل « الذات » فى تجربة

الاغتراب ، لكن بمنهج يقوم على الرغبة في المعرفة كتوسيع للذات ومد حدودها . هذه المعارف التي تعرضها من خلال موضوعاتها التي اختارتها ، وتدعونا إلى تأملها ، قد تتعدى إطار المؤلف في الحياة الاجتماعية والثقافية التي ارتبطت بها ، لكنها تعرضها لتوقظ فينا - بفعل المقارنة . الشعور بالتعجب ، وتستنهض فينا موقفا مماثلا لموقفها ، حين غادرت دائرة أسرتها ووطنها ، وراحت بعين فاحصة تشكك في ذلك « النموذج » للحضارة التي عاشت فترة من الزمن في ظلها ، رافضة أن تتسلط عليها منظومة قيمها ، دون أن تتفوق في شرنقة ، أو مجموعة زجاجة تتطلع من خلالها إلى مظاهر تلك الحضارة ، أو تقرأ عنها في كتاب ، بل تمارس حياتها وتخرط في دولا ب العمل اليومي لهذا المجتمع ، وتتوازي معه بما تحمله من رؤية تخالفه ، وفقا لإرثها الاجتماعي ، وتتمرد بخصائصها الذاتية عليه .

وهي تحكى وتسرد لنا حكايتها دون أن تخلق أو تتبنى - ككاتب - دور « السارد » أو « الراوى » ، بل إنها واحدة من الشخصيات التي تؤسس عالم هذه الحكايات المتنوعة ، إنها هنا ليست « الراوى » المفا رق لما يروي ه ، بل « الراوى » المتماهى الذى عاش ما يروي ه بعلاقة عضوية وحيوية ، لا تفصلها مسافة أو زمان ، تتجلى مشاركة في الأحداث ، تصر ح بكل شىء ، صوتها عال بوجهة نظرها ، لا تعرف شيئا عن هذا

المجتمع ، وتندesh وتتعجب وتصرخ أحيانا عندما «تعرف» ، لتمر لنا خطابها ، حتى تبدو هذه الحكايات دونها لاقيمة لها . إذ صارت هـر « البؤرة » التى تكسب الأحداث والحكايات مذاقا وإدراكا خاصا .

ورغم أن د . هالة سرحان قد تحررت من فكرة « الحضاريين المركزيّة » ورفضت سلطتها وهى تعيش فى رحابها ، إلا أنها تتمحور حول ذاتها أو أعلنت خروجها من التاريخ كمن حكّت عنهم كتابها ، بل إنها تنتقد الأمور بموضوعية ، فتطرح نماذج لتفسخ شكل العلاقات الإنسانية بحس فكاهى تمتلكه ، صور لنا ذلك المأزق الذى وصلت إليه تلك الحضارة . وهى تواجه كل ذلك بانتماء وتمايز تدرّكه وتعيه ، يتمثل فى خلفيتها الثقافية التى تغذى تماسكها ومقاومتها والذى لا تشكل فيه الثروة أو الالتزام الحماسى مكانا ، بل إيمان لكل ثقافة قيما وتقاليـد خصوصية وروابط عاطفية ، وأن الإصابة الكارثة ليست فى « الآخر » المائل ، بل فى « الذات » حين ينخر فيها السوس تدريجيا ، فتفقد معنى حياتها ولا تعد تملك عيونا وفكر وطاقة وتصبح قابلة للاغتصاب .

إن الكتاب لا يصور صدمة أو انبهار فتاة مصرية أمام ما هو مقارنة بما لم يكن لها متاحا فى مجتمعا فتصاب بالاختلال الذى يفقدها وعيها ، بل يعرض طاقة فتاة مصرية أمام سلسلة من التحديات

والمعاناة لم تزعزع توازنها أو تشرخ أو تعمق فيها الإحساس بالنفس المبتورة ، أو تجتث جذورها فتسعى كى تتشبه « بالآخر » .

إنها فتاة منزوعة السلاح ، لكنها قادرة على الاستيعاب والتعايش دون أن تفقد هويتها الخاصة ، ولديها قدرة المواجهة التى لا تخفيها ، وسعة الأفق التى تتعامل به مع التقنيات المستحدثة مقتنعه بأن « النموذج الحضارى » غير قابل للتعميم ، فى حين أن « تقنياته » قابلة للنقل والتعامل .

إن الكتاب يضم تجربة خصبة تنعش قدرتنا على المقارنة ، وتحقيق قراءة واعية تحذرنا من أن نقع فى الفخ المنسوب وغوايته ، فالكاتبة تحمل ثقافتنا مطبوعة بالحديد المحمى فى ذاكرتها ، ويستطاب لها أن تصرخ بوجعها عندما يقترب من منظومة قيم ثقافتها مغتصب ، وتستخدم لغة منتقاه لاذعة ، وإشارات توقف فى الصياغة تعكس فكرها ، ولغتها فى العموم لغة حارة كاشفة متميزة تماما كبنية عقلها التى هى نقطة انطلاق موهبتها .

وللقارئ سلطة - كما يرى النقد المعاصر- على النص المطروح ، لذلك فإننى أتركك أيها القارئ لتمارس حقك .

د . فوزى فهمى

رئيس أكاديمية الفنون

أمريكا.. خبط لزنق !

عشرة سطور غيرت مجرى حياتى
ونقلتنى من شارع الهرم المزدحم بالعمارات وعوادم السيارات
والناموس إلى شارع شجرة الكافور الحزينة فى مدينة لوفيل بولاية
كنتاكى، أرض الفلاحين الجوانى أو الغرب الأوسط الأمريكى.

نعم عشرة سطور

نقلتنى من الشرق الأوسط إلى الغرب الأوسط

عشرة سطور فى برقية :

«منحة شخصية من جامعة لوفيل - قسم الدراما - منحة تعليمية

تقوم فيها الجامعة بدفع مصاريف الدراسات العليا مقابل قيامك

بالتدريس بالجامعة، مادة الحركة المسرحية».

رئيس قسم الدراما

د. ألبرت هاريس

موعد الوصول : ٢٣ أغسطس

بدء الدراسة: ٤ سبتمبر

جدول المحاضرات : الأحد - الثلاثاء - الخميس ٢-٤ بعد الظهر.
الرجاء التواجد يوم ٢٥ أغسطس لتسجيل قيدك في فصول
الجامعة المختلفة.

الإقامة في الأسبوع الأول مع أسرة رئيس القسم.

استضافة!!

وصلتني البرقية المفاجئة، يوم ١٣ أغسطس، يعنى لم يكن لدى
سوى عشرة أيام للإعداد للسفر، واتخاذ هذا القرار المصيرى.

أمريكا مرة واحدة!

أمريكا خبط لزق

الدراسة في جامعة أمريكية منتهى أمل ومنية وغاية آلاف الطلبة
والطالبات من أمثالى، لكن لم يخطر لى على بال أن المنحة ستكون
دراسة وتدريس..لم يمر على خاطر ولم يكن فى الحسبان أن أقوم
بالتدريس للأمريكان.

ظلت هذه الفكرة المربعة تطاردنى فى صحوى ومنامى.. لكن
الشرط نور؛ هذه المنحة بالتحديد يقوم فيها الطالب فى قسم الدراسات
العليا بالعمل كمعيد فى الجامعة مقابل التعليم المجانى، بالإضافة إلى

منحه مبلغاً رمزياً محدوداً لا يسد الرمق ويكفى للحياة تحت حد الفقر.

تذكرة سفر.. تأشيرة دخول.. دموع أمى الحارقة، ودعوات أبى الصادقة، وروحى وارجعى بالسلامة.

وروحى ماترجعيش، قالتها جارتى الشابة بثقة: هذه أمريكا على سن ورمح!

فى مطار القاهرة واجهتنى أول عقبة على الطريق... الوزن الزائد! وهذا يعتبر من الفولكلور الشعبى المصرى. ولو لم أكن مصرىاً لوددت أن أكون مصرىاً وأحمل «هاند باج» ثقيلة.

السلوك السليم فى مثل هذه الأحوال هو الابتسام مع قليل من البؤس وكثير من التوسل.

ولم أتوسل. لكنى أبلغت الموظف المسئول فى عنجهية شديدة أننى فى طريقى لدراسة الدكتوراه فى الولايات المتحدة الأمريكية، خبط لزق! يعنى مسافرة مع سبق الإصرار والترصد لأتعلم وأعود لخدمة بلدى.. وطنى حبيبى، وياحبيبتى يا مصر. وأنا محملة بأثقال العلم؛ كتبى وزادى وكراكيبى فى بعثة تعليمية ولست فى رحلة ترفيهية أو بغرض تجارة الشنطة.

حملك الموظف المسئول وأنا ألقى هذا الخطاب الوطنى الجاد، ثم نظر لى نظرة الإنسان المتهور الذى يوقع يومياً على المثات من جوازات

السفر وهو مازال محلك سر، من مصر الجديدة لشبرا يياقلبي لا
تحزن.. امتعض وتافق قائلًا:

- دكتوراه.. سكة الى يروح مايرجعش، كلهم يسافرون للدراسة
على حساب البلد، ويبلطون في الخط هناك ولا يفكرون في «الرجوع
إلينا» ولا في الشعارات الوطنية التي تتشدقن بها يا أنسة، ابقى
ارجعى، بلدك محتاجة لك.. فوتى ومع ألف سلامة، انت وكتبك
وكراكيك!

في الحقيقة.. الحقائق كانت خالية من الكتب، لكنها محشوة
بالملابس والأحذية (لزوم الأناقة الجامعية عند الخواجات) بالإضافة
إلى سجاجيد كرداسة و«جلاليب» وعلب مشغولة بالصدف وورق
البردى، لزوم التواجد المصرى والهدايا..!

أى والله. فإنه من المعروف ومن المتداول أن الهدايا من موروث
السفر المصرى عبر التاريخ. لمن ومن أجل من؟ لا أدرى ولا يهم.
لأصحاب القسمة والنصيب، هدايا في المطلق، هدايا من مستلزمات
السفر وخلاص. والمثل الشعبى يقول: أنا غنية وأحب الهدية. إذن
الراسمالية تحب الهدية.. والهدية تكسب النفوس وتلين قلوب الناس
والأساتذة.

لم أكن أتوقع أو أتخيل أو أتصور علامات الاستفهام والدهشة
على وجوه الأساتذة والزملاء حين قدمت هداياى المصرية.

كانت العيون تلمع بالاستفسار والتوجس: بمناسبة إيه؟ لم أفهم. كيف لا يقدرّون أن القادم من السفر لا بد أن يقدم هدايا..! كانت عبارات الدهشة تفوق كلمة شكر «ثانك يو» التي ينطقونها من طرف الأنف (وهذا هو تعريف كلمة أخنف على الطريقة الأمريكية) وتحولت الهدية إلى قضية محرّجة للغاية.

لم تكن مسألة الدراسة والتدريس هي فقط التي تؤرقني وتنغص على رحلتي. كان موضوع استضافة رئيس القسم الأمريكي لي في منزله مسألة غريبة ومربية ومبهمة.

أولا: رئيس القسم عندنا في مصر مازال يبحث عن شقة، ثم ما شأنه باستضافة الطلبة؟! عندنا إذا ألقى رئيس القسم تحية الصباح «تبقى» فتحت لنا طاقة القدر. وإذا تذكر اسم طالب فلما أن يكون هذا الطالب عبقرى زمانه، أو واسطته سيادة الدكتور العميد، أو ابن دكتور زميل (سيصبح معيدا في يوم من الأيام طبعا).

لماذا يقوم رئيس القسم باستضافتي؟ بنت مين في مصر.. وبما أنه رئيس قسم لا بد أن أكون في عمر أولاده.. يعني لا بد أن يكون متزوجا. مصيبة لو كان من مدرسة العقاد ويحب عيشة العزوبية. «إن شاء الله يطلع متزوج بالثلاثة». في هذه الحال يمكن عنده أولاد.. في سنى.. مصيبة.. كيف أقيم مع شباب أغراب في بيت واحد. لا.. لا بد أن نضع النقاط فوق الحروف. أنا بنت شرقية محافظة جدا جدا حتى لو ذهبت

إلى القطب الشمالى.

قمت بإعداد خطبة عصماء عن عظمة الشرق المحافظ وتفسخ المجتمع الغربى المهترىء للسيد رئيس القسم، الذى لا أدرى ما الذى حشره فى الموضوع بالضبط. هل يتقاضى مرتبه عن التدريس وتربية جيل صاعد وإدارة شئون القسم، أم عن رعاية اليتامى المساكين والوافدين؟.

طبعا.. «مأنا طالبة وافدة».

الطلبة الوافدون عندنا فى الجامعات المصرية من قبائل الفولانى واليوروبا النيجيرية أو من سيريلانكا وباكستان وماليزيا والكونغو. نحن - الطلبة المصريين - نعتبرهم قادمين من دول فقيرة متخلفة إلى هوليوود الشرق «القاهرة الساحرة».

شعرت بالذنب، فأنا اليوم طالبة وافدة. ترى هل سألتقى نفس المعاملة ونظرات التعالى والفوقية من الطلبة الأمريكان بصفتى قادمة من دولة نامية (أيوه.. نامية. فالدول إما نامية تنمو أو متقدمة تقدمت)؟ أما لقب الدول المتخلفة فمرفوض مرفوض فى قاموسى الثورى. وضربة فى قلب من يقول «متخلفة» حتى لو كان رئيس القسم. كنت مدججة ببعض العدوانية وقليل من عدم الثقة والتشكك وكثير من علامات الاستفهام والخوف من المجهول... ورئيس القسم!.

وصلت مطار مدينة لوفيل بولاية كنتاكي (مسقط رأس دجاج كنتاكي الشهير). لم أكن أعرف عن هذه الولاية سوى علاقتها الوثيقة بالدجاج المقل.

وجدت في استقبال السيد الدكتور رئيس القسم.. مرة واحدة.. خبط لزق!.

لم أصدق عيني للوهلة الأولى، السيد رئيس القسم شخصيا والسيدة قرينته وكريمه وكريمته (المدام والعيال والأستاذ جاءوا جميعا لاستقبال) «بالشورت» والحذاء الكوتشي. صحيح الدنيا صيف ودرجة الحرارة نار، لكن بالشورت! يا أساتذة. قلت: ديمقراطية وحرية ويمكن «سلو بلدهم» البساطة البساطة. وجدت أن الأمور استجد فيها أمور.. لم يكن الدكتور والأسرة فقط، بل وهيئة التدريس بأكملها. انتفخت أوداجي... مصر أم الدنيا برضه.

تذكرت فاتن حمامة وماجدة وسعاد حسنى وتراثى السينمائي النسائي، ورننت في رأسي أصواتهن في اللهجة الفلاحى: هو ده البندر... أنت فين يا أمه، تعالى شوفي بنتك.

وما بين طرفة عين وانتباهتها يبدل الله من حال إلى حال. السيد رئيس القسم والهيئة جاءوا لاستقبال وفود الوافدين للجامعة. العبد لله من مصر وناس قادمة من بورتريكو وكوستاريكا والمكسيك والهند وباكستان وسيريلانكا وقبائل الفولاني.. إلخ إلخ.. كلهم

أجل المرحومة البعثة.. ويتحدث من منطلق أن البطاقة الخضراء حولت
عيونه السوداء إلى خضراء وجعلت شعره الأجعد سلاسل من ذهب.
على كل الأحوال أبواب الجنة موصدة أمامي، لأنني لست لاجئة
سياسية والحمد لله، كما أنني بنت شرقية محافظة لن أتزوج أمريكيا
ومقطوعة من شجرة في أمريكا. تذكرت كلمات موظف الجمارك
بمطار القاهرة وسكة اللى يروح مايرجعش حين سمعت همهمات
وهمسات زملائي الوافدين بنوايا خبيثة فحواها، من ذا الذى يريد
العودة للدول المتخلفة (قطع لسانهم).

اكتشفت فيما بعد

إذن.. موضوع استضافة رئيس القسم لسيادتي كان مجرد
صدفة خير من ألف ميعاد وليس لأن هناك وجه شبه بيني وبين
نفرتي أو حفيدة الملك خوفو.

الدكتورة صرم.. الدكتور !

وقفت الدكتورة حرم الدكتور رئيس القسم وهي ترتدى الشورت في مطبخ المنزل الريفى الجميل تعد العشاء على الطريقة الأمريكية. لوفيل.. مدينة ريفية جميلة وهادئة ومملة في الغرب الأوسط. بلاد الفلاحين. ومنزل الدكتور جميل واسع وهم لا يطلقون عليه كلمة فيللا ولا قصر. البيت هو بيت السكن والسكنة والأمان والأطمئنان والانتماء والأسرة. البيت هو أهم شئ في حياة الأمريكان. وللبيت حديقة غناء وأشجار وارفة وحمام سباحة. تحسرت على رئيسى الذى مازال يبحث عن شقة في القاهرة. وتصورت أن مهنة التدريس الجامعى تؤدي إلى هذا الثراء الفاحش. وإلا من أين لك هذا يارئيس القسم، هذا المنزل الوجيه وهذه السيارات الفارهة، ربما يعطى كثيرا من الدروس الخصوصية (لكن هذا قسم دراما وليس كلية الطب).

في اليوم التالي، شاركت في طلاء حجرة المائدة باللون البرتقالي وتركيب ورق الحائط في حجرة الأولاد. قام الدكتور في عطلة نهاية الأسبوع بعمل السباك والنجار والنقاش وأن كل شيء في البيت صنع محليا، أي بيده لا بيد العمال والمقاولين، يعنى لا غنى ولا يحزنون.

كل ما في الموضوع أنه اشترى البيت بالتقسيط على ثلاثين سنة مثله مثل معظم الطبقة المتوسطة من الشعب الأمريكى. والسيارات بالتقسيط، وخذ عندك يمكن أن تشتري أى شيء في الدنيا بالتقسيط على دفعات والوظيفة هى وثيقة التأمين. الاقتصاد الأمريكى الحر قائم على الحركة الدائبة لبيع المساكن وصناعة السيارات. والناس في حركة بيع وشراء وانتقال لا يكلوا ولا يملوا.. مخلوقات استهلاكية. الأمريكى يبدأ حياته في بيت صغير يكبر مع نمو دخله وأسرته وارتقائه لسلم النجاح العمل والاجتماعى. من منزل إلى منزل، ومن ولاية إلى ولاية سعيا وراء الأفضل. ومن ثم أعطى ذلك دفعة قوية جلة الاقتصاد التى يحركها وقود الاستهلاك اللانهائى.

وهذا لا يعنى أنه لا توجد بطالة، بالعكس، لأن مجتمع المنافسة يولد حتمية قاعدة البقاء للأفضل، وهذا هو المحور الذى يركز عليه الفكر الرأسمالى.

كانت هذه نبذة تعليمية من الدكتور رئيس القسم لأنى لم أفهم نظرية الاستلام فورى والدفع بالتقسيط (حتى لو كان ٣٠ سنة)

يعنى الثراء نسبى والفقر نسبى، والسلف فى أمريكا ليس تلتفا والرد خسارة بل بفوائد وكما يقول التعبير الأمريكى Foir enough أو منتهى العدالة، أو حتى نراعى الدقة هذه عدالة بدرجة كافية.

فكرة العدالة الغربية نسبية، بدرجة كافية أو كبيرة أو ممتازة بما يوازى قيمة الفعل. وهذه عقلية برجماتية عملية، على عكس فكرنا الشرقى الذى أعطى العدل مفاهيم فلسفية وأبعاداً عاطفية. فكيف يكون العدل بدرجة؟ العدل عدل ولا يمكن أن يصبح نصف عدل أو ربع عدل!

انبرت الدكتوراة «آن» للدفاع عن وجهة نظرى الشرقية فى استحالة تجزئة العدالة، فهى ترى أنه ليس من العدالة أن نذبح الحيوانات لناكل لحمها!!

اندهشت وقلت لها إن الحيوانات لم تكن هى المقصودة بفكرة العدالة، لأننا شعب يقيس المكانة الاجتماعية للشخص بمقدار ما يأكل من لحم! وأن اللحم عندنا قيمة ومركز. اكتشفت فيما بعد

أن الدكتوراة مخلوق ضد اللحم! الدكتوراة بيثوية، من أشد الدعاة وحماة البيئة. والدكتوراة نباتية تأكل الخضروات وترعى النباتات فى الظل وفى عز الشمس، وتعتبر أكل اللحوم همجية ووحشية. وقلبها يأكلها على شعور البقرة لحظة ذبحها (وتجى لها كوابيس).

بالدبية واليوم وكلاب البحر وتغمض عينيها عن ملايين الأطفال والفقر المدقع والجهل الشديد. والمسائل نسبية.

الدكتورة حامية حمى المملكة الحيوانية تنفق على طعام القطط والكلاب والفئران (نعم.. الفئران المستأنسة لتسلية الأولاد) تنفق مبالغ شهرية باهظة. وهى ليست وحدها، فالبيثيون كثير وشركات الإعلانات التليفزيونية تعمل كالمنشأار طالع إعلانات طعام القطط، نازل إعلانات طعام كلاب. إعلانات يسيل لها لعاب البنى آدمين، معلبات كبد الدجاج المهروس والاستاكوزا المفرومة بالجمبرى، وأنا قادمة من بلاد عاشت الحلم الاشتراكى حتى النخاع!

ومازلت أذكر فى طفولتى الشبشب «الزنوبة» وعلبة الأناناس والبنطلون الهيلانكا والنظارة البرسول كانت منتهى المراد وتتطلب رحلة إلى غزة. وحتى حين حدثت وفتحت من أوسع الأبواب بسياسة الانفتاح، كنا نعتبر أن توافر المياه الغازية رفاهية عجيبة.

قلت للدكتورة البيثوية أننى شرقية لا أستطيع استيعاب فكرة طعام القطط والكلاب المعب والمغلف تغليفا فاخرا. بقايا الطعام فى أى بيت شرقى من نصيب صاحب النصيب، وفضلات الفضلات من نصيب القطط والكلاب. لم أكن أدرك أن سعادة القطه وسيادة الكلب تقام لهما أعياد ميلاد وتقدم لهم هدايا فى رأس السنة والكريسماس من عظم بلاستيك وجاكيئات صوف اسكتلندى وعلب شيكولاته محشوة «زفر»!

الثقيلة.. على الطريقة المكسيكية!

وهذه هي...

الصدمة الحضارية Cultural shock

والصدمة الحضارية تعبير أمريكي يطلقونه على أمثالي من الوافدين، من الشعوب التي عرفت الصدمة السياسية، الصدمة النفسية، الصدمة الاقتصادية، الصدمة الإرهابية، الصدمة الدكتاتورية وأضعف الإيمان الصدمة العاطفية.

لكن الصدمة الحضارية هي الصدمة الأمريكية... حقا

والصدمة الأمريكية تصيب الوافدين من بلاد تتركب الأفيال أو الجمال أو الاتوبيسات المزدحمة، وهي تبدأ من إعلانات «فواجرا» القلط و«كافيار» الكلاب إلى تكنولوجيا الحياة اليومية، حيث تصرف الشيك من البنك وأنت جالس في السيارة، وتتصل برقم تليفوني

ويبدو أن البائعة الذوق لم تفهم شيئاً، إلا أنها مضت في أدب
تقول: لست في حاجة إلى استعجال ولا وزير ولا غفير ولا
تليفونات، خلال ساعتين وخمس وعشرين دقيقة سيعمل تليف
كل ما عليك، هو وضع السلك في «الفيشة» الخاصة بالتليفو
منزلك. التوصيلة موجودة في أى مبنى والخطوط متوفرة.
— والإمضاء والتوقيع، وتأشيرة السيد وكيل الوزارة وم
الوزير.. أما الجماعة الأمريكية دول.. كيف يتجراون على تركيب
دون التأشيرة؟!..
المهم أصبح عندي الآن.. تليفون.

حارم طر صيفاً.. زهرير عمري شتاءً!

في السوبر ماركت وهو حقا «سوبر» يمتد على مساحة عدة فدادين، دهاليز طويلة يمكن أن تمر بينها سيارة ميكروباس بالزبائن. الرفوف مزدحمة بألف صنف وصنف، مائة صنف شاي وخمسمائة صنف قهوة وسبعمائة صنف عصير.

دفعت بالتrolley الصغير أمامي لشراء خزين البيت (أقصد الاستوديو) خل وزيت وسمن وسكر وأرز وعدس وشاي وفاكهة وخضروات وعلب محفوظة، حتى تحول التrolley إلى هرم صغير من المشتريات.

الطابور طويل والناس كلها تدفع بالشيك أو بطاقة الائتمان أو ما يطلقون عليها افلوس البلاستيك إلا محسوبيتكم، دفعت نقدي، حذرتني جارتى في الطابور سيدة عجوز، همست لى قائلة: لا تحملى

دولارات معك، إنك صيد ثمين للبلطجية والحرامية. احتفظي دائما بعشرة دولار فقط حتى إذا وقعت تحت تهديد مطوأة أو مسدس لا يصاب السارق بالاستفزاز، إذا ما وجد أنك خالية الوفاض من النقد. تهديد! مطوأة!

سألتني عاملة السوبر ماركت التي وضعت مشترياتي في أكياس ورقية ضخمة بحرص شديد: هل تريدين المساعدة أو أن يصاحبك أحد للسيارة؟ سيارة!

سيارة من؟ شعرت بالخجل وقفت اضرب أخماسا في أسداس. وقعت في حيص بيص. والاكياس الضخمة المحملة بالاثقال الحديدية الوزن مرصوفة على الرصيف أمامي.

لا يوجد تاكسى، فالتاكسى في هذه الأراضى الشاسعة يجب استدعاؤه بالتليفون ويكلف شىء وشويات دولارات.. وأنا وافدة مغتربة جئت لا أعلم من أى شارع لكنى أتيت، ولقد أبصرت أمامي سوبر ماركت فدخلت.

لا يوجد فراش ولا ساعى ولا سايس ولا الواد بلية يأخذ ربع دولار ويحمل عنى تلك الأحمال والأثقال. وتذكرت محاضرة السيد رئيس القسم بالاعتماد على الذات.. هذه أمريكا ياويكا، قلت لنفسى: هلب يور سلف واتكلى على اللى خلقتك يابنت.. احملى الاكياس.

لكن محسوبيتكم مخلوق ضعيف ذات إمكانيات جسمانية محدودة
وعدد ذراعين فقط لا غير، أمام عشرة أكياس منتفخة مثل الدببة
القطبية حبايب الدكتور أن.
ومشوار الألف ميل يبدأ بخطوة.

وهذا هو مشوار الألف ميل الذى لن أنساه ما حييت. كنت أقوم
بحمل كيسين عشر خطوات، أضعهما على الرصيف وأهرول عائدة
أحمل كيسين آخرين وأضعهما إلى جانب جيرانهما، وهكذا أربع
ساعات مرت كأنها أربعمئة سنة وأنا أركض لاهثة بين الأكياس
والعرق يتصبب منى، والسيارات المارة تهدىء من سرعتها للفرجة
على هذا المشهد العجيب الفريد. فتاة وحيدة مجنونة تعدو عشرة أمتار
بين هذه المصائب السوبر ماركتية، وقد انهمكت فى سباق محموم مع
قوى خفية. والذى زاد وغطى حتى تكتمل المغامرة التراجيدية، أن
السماء رعدت وزمجرت وانشقت عن ثعابين كهربائية مرعبة.. هذا
هو البرق بعينه.. شخصيا أتعرف عليه عن كثب.. برق ورعد وأمطار
غزيرة، صرت أسبح فى ماء بالسكر والأرز باللبن، أسنانى تصطك
وركبى ترتعد حتى وصلت إلى الاستوديو المنشود وقد أصبحت
ذراعاً فى لون الباذنجان الرومى زرقاء رمادية، وأصابعى فى حجم
محشى الكرنب المجمد. توقفت الدماء عن السريان فى عروقى
واستلقيت على الأرض (لأن السرير فى الدولاى والأمر يستلزم طاقة

جسمانية ومجهودا عضليا لإخراجه) ومن حولي الأكياس المبللة
تحقق في كساحرات ماكبث، تكاد تهمس: احترس.. احترس..

أنا لم أفكر لحظة في عواقب رحلة التسوق الممتعة، لم يخطر على
بالى أنى لا أملك سيارة، وليس لدى جيش الخدم العرمرم المجانى
المنطلق يركض فى شوارع القاهرة تحت الأمر والطلب مقابل شىء
نسخر منه، وننتقده، ونتبرأ منه، ونحتقره، وندعى أننا توارثناه عن
المستعمر التركى، شىء اسمه البقشيش، لم أكن أدرك أن النخوة
والشهامه ومساعدة الناس لبعضهم البعض مسألة تتطلب تفكيرا
وقرارات من الأمم المتحدة، لأن الناس تخشى بعضها البعض، ولو
تهور مخلوق لمساعدة ضحية حادث سيارة مفروم تحت العجل،
يضعونه فى السجن وربما يطالبه المجنى عليه الضحية بتعويض لأنه
كسر له ضلعا وهو ينقذ حياته!

لم أدرك أن سلوكيات وقوانين الشراء الأمريكى والتسوق على
الطريقة السوبر ماركتية يختلف اختلافا جذريا عن التسوق فى
الشارع المصرى. كما أننى لم أكن أتوقع مفاجأة الطقس الكنتاكاوى
السخيف، وأنه ليس حار جاف صيفا ، معتدل ممطر شتاء.. بل حار
ممطر صيفا برد زمهرير وتلج مريـر .. شتاء،

لم أفكر لحظة أننى حين أصرف ما فى الجيب لن يأتى الدولار من
الغيـب.

وكان أول درس من دروس الصدمة الحضارية.

كل شيء متوفر نعم.. لكن عرفت شراء موزة واحدة وأن برتقالة واحدة تكفى وأن اللحم يباع بالشريحة والجرام وليس بالكيلو وحتى أسلك سبيل التوفير بدون تأنيب ضمير اتصلت بالدكتورة حرم السيد رئيس القسم وأخبرتها أنني معجبة بجمعية أعداء اللحم على سبيل مناصرتها في قضيتها المصيرية ألا وهى الرفق بالحيوان.

لم تدرك الدكتورة أنني أخفى دوافعى الحقيقية مثل شح الميزانية وادعيت أنني فكرت في معاناة البقر ودموع الخروف، ثم أنني أقنعت نفسي أن لحمة عم أنور الجزار طعمها عسل وسكر مقارنة بلحم الأمريكان التى يشبه طعمها طعم صناديق كرتون الأحذية أو صابون الجمعية.

لكنى كنت أعشق ساندوتشات ماكدونالد الهامبورجر ، هذا بالإضافة إلى إنها رخيصة وفي متناول اليد. سألت الدكتورة في خبث: المقاطعة اللحمية لا تنطبق على مقاطعة الهامبورجر.. يقولوا معمول من فول الصويا؟ وأنا بنت حضارة الفول.

والتقيت بها!

تعرفت على قطعة «الاستيك»، أو قطعة اللحم الهرقلية، والاستيك الأمريكى ليس له مثيل. قطعة لحم عملاقة، والقطعية سواء كانت مشفية أو بالعظم تتنوع أشكالها وأسمائها، لكنها في كل الأحوال أكبر

من الطبق، تمتد أطرافها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا.
الأمريكيون هم الذين اخترعوا الحجم الكبير «السوبر» في كل
شء. وهم يبدأون من قاع السلم بالحجم الصغير الذي لا يملأ العين
ولا يسد الرق، وهناك الحجم المتوسط، «النص نص» عندنا. أما
بشأن القياس الكبير، فالكبر درجات. كبير، كبير قليلا، كبير زيادة،
كبير جدا جدا وهذا هو الإكسترا، حتى الإكسترا فيه واحد واثنين
وثلاثة وهناك السوبر.

فإذا سألت أمريكيا كيف حالك اليوم ويكون حاله تمام التمام؟
يرد قائلا: أشعر كأنني مليون دولار.

ونظرية السوبر أو مافوق العادى يطبقها الأمريكيون في حياتهم
اليومية على جميع المستويات بدءا من حجم قطعة اللحم، أو
الساندوتش الخمس طبقات إلى السيارة.

والسيارة الأمريكية فارهة بالضرورة، وهم الذين اخترعوا
الكاديلاك والليموزين والسيارة ثمانية أبواب.

وفكرة الرفاهية الأمريكية سوبر مطاطة، مرتبطة ارتباطا وثيقا
بفكرة الحجم الكبير والانتساع والامتداد والرحابة، وهو سلوك
حياتى ومعادل موضوعى لامتداد الخريطة الجغرافية للقارة
الأمريكية — الأمريكيون هربوا من ضيق أوروبا إلى الأراضى
الأمريكية الشاسعة واخترعوا شعار Think big فى المشروعات

والشركات والعلاقات العاطفية ومعناها إذا فعلت شيئا فليكن كبيرا.
(في حضارتنا اخترنا أن نقول إن عشقت اعشق قمر وإن سرقت اسرق
جمل). وعلماء الاقتصاد يستعلمون stale of Economy ومعناه
أن التوسع في الإنتاج والطلب والسوق يسمح بالربح بينما ضيق
السوق وصغره يؤدي إلى انهيار المشروعات. وعندهم مثل شعبي
يقول «إذا أطعمت فول سودانى تحصل على قرود!»

دعانى أستاذ مادة الدراما الشكسبيرية المعقد على العشاء هو
والمدام. والحقيقة صحتهم كويسة، هو طول وعرض باب «سوبر»
والمدام في حجم أريكة إكسترا لوكس.

كانت الدعوة في مطعم متخصص في أنواع الاستيك الهرقلى.
أدركت أن الدكتورة حرم رئيس القسم النباتية خدعتنى . أعطتنى
فكرة زائفة عن المواطن الأمريكى.
الموضوع ومافيه أن الدكتورة تنتمى إلى فئة البيئيين النباتيين
الخضر.

وهم عادة من المثقفين الكحيانين أصحاب الشعارات لأنهم ليسوا
من أصحاب الارصدة الضخمة والحسابات البنكية الفلكية. الإنسانية
«تنقح» عليهم بصفة دائمة ويخترعون دوافع المثالية لكل شيء حتى
أكل اللحم.

والمثقف الأمريكى يتصور أنه يستطيع قيادة الحياة وأنه رئيس

مجلس إدارة الإنسانية. يقوم بتوظيف الأخلاق وفلسفة الأمور لأن الطاقات الإيجابية الكامنة في النفس الإنسانية منطلقة بدون قيود الأعراف والتقاليد العتيقة، متحررة من أسر الماضي العريق، لأن ليس لهم ماض ولا تاريخ. والمتفقون الأمريكيون أعداء التدخين وأكل اللحم والتلفزيون والثروة مثل الدكتورة البيثوية متوسطة الحال التي عندها بيت وبدلا من السيارة اثنتين وحمام سباحة وتلعن البرجوازية.

واكتشفت فيما بعد..

أن المواطن الأمريكي يعشق اللحم ويموت في دبابيب الاستيك وساندوتش الهامبورجر والهوت دوج (الكلاب الساخنة - أو السجق أما لماذا أطلقوا عليها هذا الاسم العجيب.. اسألوهم). والمواطن الأمريكي يعيش على طعام «الجنك». هكذا يسمونه وترجمة الكلمة «الخردة». أى أنهم يدركون أن هذا الطعام غير صحى وخردة ومزيف مضاف إليه مكسبات اللون والطعم والرائحة إلا أنهم يعشقونه.

طبعاً لم أطلع الدكتورة البيثوية على علاقاتى الجديدة الوطيدة مع الاستيك الأمريكى والتي انتهت بكارثة ومقاطعة من الدرجة الأولى فحين وجه لى أستاذ الدراما وزوجته الدعوة على العشاء ثم الذهاب إلى السينما «وهذه هى الفسحة التقليدية للناس العادية» قلت لنفسى: يا للكرم.. وكيف لى بالانتقال وأنا لا عندى مركبة فى البلد ولا عندى

زورق؟! قلت : فرصة ذهبية أن يصحبنى الأستاذ والمدام في سيارتهما الفارمة. قبلت الدعوة وأكلنا الاستيك العظيم وجاء وقت الحساب فإذا بالأستاذ المحترم والمدام يتشاوران في الفاتورة ثم أخرج كل منهما بعض الدولارات من جيبه والتفتت لى المدام قائلة : «مطلوب منك خمسة وثلاثين دولار وسبعة سنتات فقط لاغير هذا نصيبك».. يعنى الدعوة تعنى الصحبة فقط أما المصاريف فكل إنسان مسئول عن نفسه.

على باب السينما فهمت «الفولة» الأمريكية في الدعوات الخارجية وقمت بدفع ثمن تذكرتى على الفور.

عزومة الويك اند.. قضت على آخر مليم.. «عفوا».. سنت فى جيبى وكان على أن أنقشف وأشد الحزام حتى آخر الشهر وما أكلته من استيك طلع على بطاطس بطاطس.

لم أستطع حتى شراء الطعام الخردة ولا أكل المهملات.
أستاذ النقد المسرحى يؤمن بأهمية العلاقة الإنسانية بين الطالب والأستاذ وقبل بداية العام الدراسى تلقيت مكاملة تليفونية من «ستيف»..

– ألوانا ستيف.

– أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم.. النمرة غلط.

– أنا ستيف أستاذ مادة النقد المسرحى.

- لا يا أخويا.. أستاذ مادة النقد اسمه «دكتور ستيفن شولتز»
- أنا ستيفن شولتز والجميع هنا ينادوننى بـ«ستيف».
اكتشفت من مجرى الحديث أنه سعادة الأستاذ. لملت أطراف
الجلابية ووقفت أمسك بالسמاعة بأدب شديد وتهذيب مريب وقلت
له:

- «يا بروفيسور شولتز....» ولم أكد أكمل العبارة فقد انتابت
الرجل حالة هستيرية من الضحك وقال لى: «بروفيسور.. لم يطلق
على أحد هذا اللقب من قبل» أرجوك أنا اسمى «ستيف».. اسمك مقيد
عندى فى الدراسات العليا وقد اتصلت لأنصحك بقراءة هذه الكتب
وأعطانى قائمة طويلة عريضة للإطلاع عليها بمثابة قرارات تمهيدية
تحضيرية قبل بداية العام الدراسى.

أولا : الأستاذ الدكتور البروفيسور اتصل بى شخصيا.

ثانيا : اهتم بإعداد الطالب قبل بدء الدراسة للمادة

ثالثا : ستيف وبرت وبيت وليز هم هيئة التدريس ويستخدم
الطلبة أسماء الدلع والتدليل فى التعامل معهم، لا أحد يقول يادكتور
ولا يا بروفيسور ولا حتى يامستر، ربما كان هذا لأنهم أبناء قسم
الدراما .. فنانيين ومثقفين بقى.

وعلى الرغم من ذلك فإن الطبيب المعروف يطلق عليه لقب مستر
حيث أن كلمة دكتور تطلق على الطبيب المبتدىء.

هذا الأستاذ المتواضع المهتم بشئون الطالب الثقافية والعلمية والنفسية قبل وأثناء وبعد الدراسة تم تحويله للتحقيق والشئون القانونية في الجامعة لأن إحدى الطالبات اعتبرت أنه سخر من بحثها فقدمت شكوى بأنه اعتدى على مشاعرها وهذا منها بين الطلبة وهذا يعتبر بلغة القانون الأمريكي «أذى نفسى» قد يكون له عواقب وخيمة على مستقبلها وثقتها بنفسها وقد وقّع طلبة القسم مع سوزى على الشكوى بالإجماع. وقفت أخطب فيهم وقلت لها اعقلي ياسوزى يا أختى انتوا عرفتوا الأستاذ فين؟ أذى نفسى يا عين أمك الزرقاء. أنا قادمة من بلاد تؤمن بأنه «كاد المعلم أن يكون رسولا» وفي أول يوم من أيام المدرسة تعلمنا القيام «وقم للمعلم وفه التبجيلا». نحن نخاف من ظل وخيال الأستاذ فبيده مفاتيح النجاح والرسوب وأبواب المستقبل، عشت وشفت الطالب يحول الأستاذ للتحقيق.

قال أذى نفسى قال.

اعتبرونى شرقية رجعية متخلفة غير ديمقراطية.

نعم الطالب يتحكم فى الأستاذ لأن الطالب يدفع مصاريف فلكية فى الدراسة الجامعية والأستاذ الذى لا يحظى بإقبال الطلبة على مادته أستاذ فاشل مهدد بالفصل، والطالب يدرس بفلسفه ومن ثم ينتظر خدمة تعليمية حقيقية ممتازة وليس مجرد شهادة والسلام.

واكتشفت فيما بعد

أنه ممنوع منعاً باتاً على الأستاذ إقامة علاقة عاطفية مع طالب..

يعنى لايمكن أن يتقدم أستاذ لخطبة طالبة عنده في القسم أو يتزوجها. وإذا كان ولا بد والحب مقطوع بعضه، إما أن تنتقل الطالبة إلى قسم آخر أو أن يستقيل الأستاذ. لأن مثل هذه العلاقات تشوبها المصلحة الشخصية والمحابة. أما إذا كان الأستاذ مستهترا وأقام علاقة غرامية مع طالبة فيتم فصله في التو واللحظة لأن هذا ضد أخلاقيات المهنة. تعجبت فهذه القضية لا تشغل بالنا في مصر والحكاية سداح مداح وياما أساتذة تزوجوا طالبات وعينوا الأولاد والبنات معيدين ومعيدات، ولم يفتح أحد ملف القرابة الشخصية.. وياما أساتذة استخدموا الجاذبية الأستاذية الشرقية ولم يتزوجوا. وخلصوا الطابق مستور.

وستيف شخصية غريبة، مثقف درجة أولى وهذا يعنى بالضرورة أنه من جبهة الرفض وهو يقاطع التلفزيون مقاطعة سوداء ويعتبر أن مشاهدة الشاشة الصغيرة تؤدي إلى السلبية والاستسلام وعدم الإقدام على الفعل والشعور بالإنجاز الزائف كما أنها تؤدي إلى الهبل المخلوط بالعبط، ستيف يعتقد أن التلفزيون يولد في المشاهد عادات متخلفة ويقوم بتفريغ طاقاته الإنسانية. ويقول ستيف: أنا أرفض أن أمتلك تلفزيونا لأنى أرفض أن أكون مجرد متلقى لثقافة مناديل الورق كما كان يطلق عليها مثل مسلسلات دالاس ونوتس لاندج التي يعتبرها مثل مناديل الورق تشاهد الحلقة ثم تلقى بها في صندوق

قمامة الفن الزائف.

وكما أخفيت عن الدكتوراة البيثوية عشقى للهوم أخفيت عن أستاذى حقيقة أننى مدمنة لهذه المسلسلات المضللة التى لاتعكس الصورة الحقيقية للحياة الأمريكية، وتعتبر من الفضائح الثقافية مشاهدة مسلسلات «أوبرا الصابون» التى تذاع لربات البيوت الغارقات فى بحر الملل ومن ثم تعرض أكبر نسبة من إعلانات الصابون فى فترة إذاعة المسلسل. ومن ثم فعليك أن تأخذ حذرک فى أى حوار ثقافى لأن مدعى الثقافة والأناقة الفكرية يختبرونک فإذا ثبت لديهم أنك تشاهد المسلسل من قريب أو من بعيد فهذا يعنى أنك منحدر فكريا ومتواضع ثقافيا وعقلک مغسول بالصابون.

أنکرت نکرانا شديدا أى علاقة مع التليفزيون أو مسلسلاته وباءت محاولاتى بالفشل فى إقناع ستيف بمشاهدة نشرة الأخبار التى تعتبر استعراض منوعات قائما بذاته، كان رده لى: الثقافة التليفزيونية ثقافة سلبية لأنها لاتحثک على التفكير أو المشاركة.

أما القراءة فثقافة إيجابية ومتعة تحث القارئ على أعمال الخيال والمشاركة الفعالة، وفن السينما يشاهد فى دار السينما وكذلك المسرح حيث يصبح المشاهد مشاركا إيجابيا بإضافاته مفهومه وتفسيره الخاص والذاتى على النص المعروض أمامه والذى ينبض بالحياة على خشبة المسرح.

عيد ميلاد كلية الجيران !

جلست أمام الآلة الكاتبة أحملق في الحروف المجرمة التى
استعصت على أصابعى، وأدندن: أراك عصىّ الدق شيمتك العند.
لعنت مخترع الآلة الكاتبة والكمبيوتر وسنينهم. ماله القلم الجميل
الرشيق.

أكتب ثم أشطب وأشطب ثم أكتب على أقل من مهل. أتحكم فى
الحرف وفى الكلمة وأغازل السطور وأنتقم من الأوراق ثم أكتب
وأشطب.

الكارثة التى واجهتنى هى أن تقديم أى بحث جامعى بخط اليد
مسألة مرفوضة ومفروغ منها. والكتابة الخطية شئ يثير الضحك
والسخرية والعجب. الكتابة الخطية أصبحت حجرية الطراز
يستخدمها أمثالى ممن يركبون الجمال والأفيال. وامصيتها.. الناس

خيبتها السبت والاحد وأنا خيبتى مش على حد. حتى الآلة الكاتبة
وهى أضعف الإيمان لم أقدر عليها بل كان المطلوب أن أقدم الأبحاث
مكتوبة على مقصوف الرقبة الكمبيوتر وأنا أرتعد وأرتعش من
التعامل مع الأجهزة التكنولوجية شانى شأن المواطن الشرقى
الأصيل.

أمسكت بالبحث بيدى وقلت لنفسى : البحث وراءكم والآلة الكاتبة
أمامكم أين المفر؟!

استغرقت كتابة البحث والبحث عن كل حرف نصف ساعة ولما
مضت عشر ساعات وأنا لم أنجز سوى نصف صفحة، وانقطع
أصبعى من الدق على الآلة الكاتبة وكان من المستحيل أن أستخدم
أصابعى العشرة فى وقت واحد اتخذت قرارا مصيريا شرقيا مائة
بالمائة. فنحن الذين ابتدعنا الاتكالية وهذه فوائد العادات السلبيه رب
ضارة نافعة، فكرت ودبرت وسألت: ترى من يمكن أن أتكلم عليه؟
اتصلت بصديقتى فيكى وعرضت عليها بلغة الأمريكىين عرضا
لاستطيع أن ترفضه وقلت لها: يافيكى يا حبيبتى أنا بنت حضارة
اتكل على الله واتكلى على وخريجة مدرسة الاتكالية. عرضت عليها
استئجارها «كتيبة خاصة» تكتبين لى الأبحاث على الآلة الكاتبة مقابل
مرتب محترم «يقتطع من أكل العيش والهامبورجر ويعيدنى إلى عالم
البطاطس». نعم البطاطس أرحم على من الآلة الكاتبة.. وهين قرشك...

جاءت فيكى فى اليوم التالى وانكفت على الآلة الكاتبة، إن هذه وظيفة محترمة فى بلدنا، وهى تشرح لى أنها لاتفهم هذا المنطق المعكوس.

لماذا لا يكتب الناس مباشرة دون وسيط؟

فيكى فتاة طويلة حمراء الشعر رائعة الجمال عيبتها أنفها المعقوف. تدرس فى الصباح وتعمل جرسونة فى المساء، كانت شكواها الدائمة أن أنفها معقوف بنسبة ٣ ملليمتر وهذه الإنحناءة إلى أسفل تعطى الانطباع بالسقوط وبأن شخصيتها ضعيفة مستسلمة.. ما علينا..

اكتشفت أن فيكى وساندى وفانسى يعملن جميعا جرسونات لأن هذه هى الوظيفة المثالية لكسب المال الحلال دون قهر الضرائب الأمريكية المفترسة وكان شعارهن «بالبقشيش نعيش».

إذن هذه الجامعة عدمانة كحيانة.. طلبة فقراء تطحنهم الدراسة النهارية والخدمة المسائية والحياة كفاح. الغريب أن الجرسونات الفاتنات يعملن بجد ومثابرة من أجل توفير مصاريف الجامعة وتكاليف طعام مين؟! طعام الكلاب!!

الواحدة من هؤلاء لاتكاد تجد قوت يومها ومع ذلك تربى كلبا وتطعمه كبد الدجاج الفاخرة المحفوظة. ولما كانت مشكلة فيكى رعاية كلبها «بنتلى» العريق ابن الأصول الكلبية الإنجليزية الارستقراطية،

ولما تعارضت أوقات فسحة الكلب مع جلسات الآلة الكاتبة، وافقت في إذعان على رعاية الأستاذ الكلب، أثناء توليها مهام النقش على تلك الآلة الجهنمية التي استعصت عليّ. وأصبحت Dog Sitter أو جليسة كلاب على آخر الزمن.

ولما كنت من تلك الفئة المناهضة للتعاطف مع الجنس الكلابي، كانت المهمة صعبة مؤلة، لكن كل شيء يهون أمام البحث وسنينه «لاحظوا وتأكدوا أنها كانت تنقل البحث ولا تؤلفه لي»، لأنني شقيت وتعبت في البحث والتنقيب بين الكتب وأقلام الميكروفيلم ومعلومات الكمبيوتر.

ولما كان الأستاذ «بنّلي» مدعوا على حفل عيد ميلاد كلية الجيران كان عليّ أن أحمل الهدية وكعكة عيد الميلاد التي صممها الجزار في السوبر ماركت حسب الطلب وذهبت مع الأستاذ «بنّلي» لحفل عيد الميلاد. وضعوا الشمع في الكعكة البفتيك ولبس الضيوف «من الكلاب فقط» الطراير الملونة ووقفوا جميعا في دائرة.. الكلاب وأهل الكلاب يغنون «هابي بيرث داي تو يو: سنة حلوة يا جميل، وأنا أتمتم في سرى «تعالى لي يا أمه شوقي بنتك عشت وشفت اليوم الذي أغنى فيه للكلاب».

قتيل.. فى البلکونة

جلست فى الشرفة أتأمل القمر وأعد النجوم وأحسب الدولارات
المتبقية من المرتب المقصوف بعد عملية استئجار البنت «فيكى» كتيبة
ملاكى وكانت السماء صافية والجو جميلا، وفجأة زمجرت السماء
ورقصت تلك الثعابين الكهربائية المرعبة فى الأفق الرمادى.. شعرت
بخوف أسطورى... وتذكرت نصيحة السيد الدكتور رئيس القسم
حين أعربت له عن شعورى بالاككتئاب والحزن من تغيرات الطقس
وعمايله وأننى أصاب بالذعر لدى سماع صوت الرعد ورؤية البرق
وأن موروثى الشعبى عن الأجواء المضطربة من رعد وبرق وسيول
محصور فى مشهد البطلة على الشاشة الفضية وهى تضع المولود
الرضيع على باب الجامع، قلت له: يوم تمطر السماء فى بلدى نجلس
ونكن فى بيوتنا وربما لانذهب إلى العمل وإذا انشقت السماء عندنا

فهذا يعنى طاقة القدر لكنها عندكم طاقة رعب.. طاقة جهنم.

انزعج واندesh وقال لى:

يانفرتيتى العزيزة.. الطبيعة رائعة وممتعة فى كل صورها.. تعلمى الاستحمام بقطرات المطر.. دعيها تداعب وجهك تغسل همومك تعلمى الاستمتاع بثورة وعنفوان وانطلاق وانغلاق البرق من أغلال السحب المتآمرة. أليست هذه أجمل لوحة تشكيلية فى العالم لايمكن أن تضاهيها ريشة ليوناردو دافنشى ولا بيكاسو؟ تعلمى الاستمتاع بسيمفونية الرعد الهادرة، بهذا التوزيع الأوركسترا لى لثانية قطرات المطر وضربات القدر فشر «بيتهوفن» فى زمانه.

يا للفرحة.. إن الطبيعة الهادرة هى أجمل معرض فنى فى التاريخ.. إن البرق والرعد والمطر تمثل احتفالا أسطوريا ومهرجانا للمشاعر الإنسانية إنها التجسيد لمعانى الغضب والثورة والإثارة والبهجة والعنف والقوة. إنها لحظة تطهير نادرة للنفس البشرية.. طهرى روحك الحزينة، فكى قيودها مع غضب سحابة مزمجرة.

فلما أرغت.. وأزبدت وأبرقت وأمطرت قلت لنفسى: اغسلى همومك يابنت تحت قطرات المطر ووقفت أنشد:

مطر .. مطر .. مطر.. وفى كنتاكى يسقط المطر.

وقفت أغتسل بالمطر وأرتعد من البرد محاولة فى يأس الاستمتاع بذلك الزئير والزمهرير وأسنانى تصطك أظك.. ظك.. ظك.. وركبتاى

ترتعدان وأنا أردد قصيدة بدر شاكر السياب الرائعة..

عينك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر.

وكانت بالفعل ساعة سحر والشرفة ثلاجة راح ينأى عنها القمر.
والمطر يتساقط في سباق مذعور وجنوني. فجأة أدركت أن السماء
تمطر دما.. دما.. دما.. نعم تساقطت قطرات المطر حمراء قاذية.
الدكتور رئيس القسم لم يذكر أن اللوحة ستكون بالألوان الطبيعية.
سينما سكوب. نسيت عملية غسيل الهموم وأصابتني حالة رعب
وهلع، رفعت عيني إلى أعلى فإذا بالمطر الأحمر القاني يتساقط من
الشرفة العليا من عند الجيران ويا للهول على حد قول الأستاذ يوسف
وهبى رحمه الله، ويالهوى على حد قول زينات صدقى رحمه الله.
هرعت إلى جارتي العجوز التي كانت تصنع لى البسكويت الأمريكى
المعجون بالشيكولاته وسألتهما النجدة، هرعت بدورها إلى جارنا
السباك وزوجته ووقفنا جميعا في شرفتى نتشاور في تلك المصيبة.
قلت البوليس يا جماعة الخير.. النجدة يا شرطة النجدة ووصلت النجدة
وحضر ضباط الشرطة وحضرت أول جريمة في حياتى وتذكرت عادل
إمام.. الشاهد الى ماشفشى حاجة.. قلت للضابط الأمريكى المدرع
بالمسدسات والتوكى ووكى:

ياحضرة الضابط أنا كنت أنفاعل مع الطبيعة وأتناغم مع

سيمفونية الرعد وأغسل همومى فى سيمفونية المطر، أنا شاهد
ماشفش حاجة ده أنا وافدة غلبانة.

اكتشفنا أنه «صدقوا أو لاتصدقوا» جارتنا التى تسكن فى الشقة
العلوية التى تعمل راقصة استربتيز محترمة وجدت قتيلة فى
البلكونة.. قتلها زوجها الغيور فى نوبة غضب ويبدو أنه تفاعل بشكل
زائد حبتين مع سيمفونية الطبيعة وثورة البرق وزئير الرعد - جريمة
عاطفية، كل يوم عشرات من الجرائم العاطفية أكثر من الهم على القلب.
هكذا علق ضابط الشرطة فى بلادة. وكانت ليلة..

وإن كنت قد عقدت هدنة مع صنف الكلاب، وقمت باتفاقية تطبيع
مع الطبيعة الهادرة المغامرة، ووقعت على معاهدة صلح مع المطر
والثلج والبرق، إلا أنني لم ولن أقبل الحياة مع الأشباح والعفاريت
وقتل فى البلكونة.

بدأت ملحمة البحث عن شقة من جديد.. وكان سؤالى الأول
لصاحب الملك..

- عندكم سكان راقصات متزوجات يامستر؟

خلى السّلاح.. هياي !

صديقتي الجرسونة الحافية راعية القطط والكتاب ذهبت في إجازة عيد الشكر الأمريكي لزيارة الأسرة الكريمة. وعيد الشكر هو العيد الأمريكي الذي يشكرون فيه الله على أمريكا يعنى يقول فيه كل أمريكي «أحمدك يارب».

وحكاية «عيد الشكر» تعود إلى عهد ملك إنجلترا «جيمس الأول» حين اختلف بعض الفلاحين الإنجليز مع كنيسة إنجلترا، فقال الملك جيمس: إما أن يذعنوا لنا أو أطردهم من المملكة، ولم يذعنوا فطردهم وشحنهم على سفينة اسمها «ماي فلاور» حيث أبحروا إلى العالم الجديد ونزلوا في «بليموث» بولاية ماساشوستس في الشمال الشرقي الأمريكي وسموا أنفسهم الرواد الأوائل، وعقدوا معاهدة صداقة مع السكان الأصليين من الهنود الحمر الذين علموهم زراعة الأرض

بالذرة، وعلموهم كيف يأكلون كيزان الذرة وكيف يطبخون طائرا أمريكى الأصل اسمه «الديك الرومى».

وفى العام التالى حين حان وقت الحصاد قاموا بدعوة الهنود الحمر على مأدبة طعام لشكر الله على الحصاد الرائع وكان هذا أول عيد شكر فى تاريخ أمريكا ومن ثم فإن يوم الخميس من شهر نوفمبر كل عام يقوم فيه الأمريكيون سواء كانوا من المسيحيين أو اليهود أو المسلمين أو البوذيين فإنهم جميعا يحتفلون معا بعيد الشكر على أن الله منحهم أمريكا.

شعرت بتعاسة ووحدة رهيبة أثناء إجازة عيد الشكر حيث سافر الجميع للاحتفال مع الأهل بكيزان الذرة والديك الرومى الذى يأكلون معه مربى توت.

جلست وحدى بين أربعة جدران أتجول داخل الدولاب حتى عادت لى صديقتى فيكى من الإجازة بمفاجأة، عادت فيكى بأنف جديد وشامخ. أنف أنيق مرفوع فى إباء وشمم، الحقيقة تحولت فيكى بعد عملية تجميل الأنف إلى صاروخ هوليوودى.

سألته من أين لك هذا يا فيكى، أيتها الجرسونة الحافية، فافصحت لى أن الأنف الجديد هدية من الوالد الكريم، نعم أهداها والدها فى عيد ميلادها عملية تجميل تكلفت ثلاثة آلاف دولار..

واكتشفت فيما بعد

أن الوالد الكريم مليونير يسبح في أمواج خضراء من الدولارات
سألتها في بلاهة:

- ولما والدك ولا مؤاخذه في هذه الكلمة و«سورى» يا اختى مستور
وفل وعشرة، وانتم أغنياء ومليونيرات، لماذا إذن كل هذا الغلب
والمرمطة والبهدلة وخدمة كل من هب ودب على الموائد. جرسونة
يا فيكى جرسونة.. عيب عليكى.. آه لو عرف أبوك سيتبرأ منك ومن
فضيحتك؟! قالت لى:

- إنه يعرف!

- بالتأكيد حلف يمين طلاق بالتلاتة إنه سيقنتك لو كررت هذه
الفعلة الشنعاء ومرمغت شرف العائلة الثرية فى الوحل الأمريكى.
اعتقدت «فيكى» أن منطقى معكوس وأكدت لى أنها مثلها مثل
معظم الطلبة تتحمل مسئولية تعليمها مسئولية كاملة وإنها لا يجب أن
تمد يدها لا لوالدها ولا لجنس مخلوق.. القاعدة أن ينفق الإنسان على
نفسه والاستثناء هو أن ينفق الأهل على الأبناء، ذهلت فيكى حين
حكيت لها أننا فى الشرق نحمل الأهل نفقات التعليم والمأكل والملبس
ونفقات أفراحنا وتجهيز بيوتنا من الإبرة لغسالة الأطباق، وفيكى
ليست وحدها بل معظم الطلبة والطالبات يعملون من أجل الإنفاق على
التعليم حتى لو كانوا من أغنى الأغنياء لأن العمل على حد قولها ليس
مرمطة أو بهدلة بل قيمة إنسانية عظيمة.. وبالمناسبة ظلت فيكى

تعمل عندي عبدة ذليلة وأجيرة.. كتيبة ملاكى على الآلة الكاتبة وأنا
مازلت أعمل جليسة كلاب عند الأستاذ «بنتلى» الكلب.

تعرف بنتلى الكلب الارستقراطى على كلبة جارتنا الانيقة وأقمنا
لهما حفل زفاف فى مدخل العمارة ووضعنا فيه الطرحة البيضاء على
رأس الكلبة «ريتا» ومررت شهور وأنجبا كلبا صغيرا جميلا أطلق عليه
بنتلى كلمة وفاء.. لجليسته المصرية اسم «ممكن» أعجبت أمه فيكى
الموسيقى الموجودة فى كلمة «ممكن».. مم.. كن، العربية وكل شىء
فى أمريكا ممكن.

زادت مسئولياتى فى قسم رعاية الكلاب المركزة وأصبح عندي
الأستاذ بنتلى وولده.. والسدى زاد وغطى وجعل ليايلينا سوداء أن
الأستاذ «ممكن» مرض بالصفراء واضطرت فيكى لكسر الوديعة
البنيكية لعلاج «ممكن» فى مستشفى تخصصى للكلاب وإجراء عملية
جراحية فى الكبد وكانت فيكى تكتب لى الأبحاث على الآلة الكاتبة وأنا
أقوم بتمريض «ممكن» وإعطائه المضاد الحيوى أثناء ساعات الليل
والنهار وأضبط المنبه للاستيقاظ فى الثالثة صباحا موعد حقنة المضاد
الحيوى.

غابت نانسى عن الجامعة لمدة أسبوع، لاحس ولاخبر ونانسى
كانت طالبة نجية دؤوبة من أشطر الطالبات فى فصلى الدراسى
وكانت تحصل على الدرجات النهائية لا تتأخر لحظة عن موعد

المحاضرة.

وكانت عادة نانسي التى كادت تصيبني بسكتة قلبية في أول محاضرة أن تستلقى على ظهرها على أرض قاعة الدرس مشهرة ساقا على ساق في وجهي تهز قدمها الصغير المحشور في الحذاء الكوتشى الممزق وترتدى الشورت الجينز وتمضغ اللبان الأمريكى وتناقشني في أصعب النقاط الفلسفية والسيكولوجية لحركة الممثل.

كانت نانسي مثلها مثل معظم الطلبة تتعامل مع الدرس من منطلق القيمة الفكرية وليس من منطلق السلوك الظاهري، في البداية غضبت وأبدت الاحتجاج والشجب لهذا النوع من الاستهتار السلوكى لكنى مع مرور الوقت فهمت عبارة:

"Take it easy"

وهى دعوة لمعالجة الحياة ببساطة ويسر وسهولة، أدركت أن «نانسى»، وغيرها من الطلبة يتمتعون بالرغبة الشديدة في التعلم والاحترام الكبير للمعرفة وللموهبة والتقدير الشديد لإمكانياتى وثقافتى الكلاسيكية الروسية التى كانت تعتبر بالنسبة لهم «كنز على باباء» لأننى تعلمت أصول التدريب الحركى على الطريقة الروسية التى تعتبر بمثابة عملة نادرة في أمريكا.

وبعد أن عقدت صداقات قوية مع طلبتى، لم يعد يهمنى كيف يجلس الطالب أو إذا كان يتشدق باللبان لأنى تأكدت أنه لاعلاقة بين

هذا السلوك التلقائي البسيط وبين قيمة الاحترام المتبادل والحرص على التعلم..

ماعلينا.. عادت نانسي بعد غياب أسبوع في حالة نفسية وصحية متدهورة سالتها:

- مالك يانان «اسم الدلع» الاختصار هو طريقة التدليل الأمريكية وقد يصل الأمر بالبعض لتسميته الأولاد في «شهادة الميلاد» بالحروف فقط لاغير يعنى واحد اسمه B.G وآخر اسمه M.T وطبعاً كلنا نعرف بطل دالاس J.R، ماعلينا عرفت من نانسي إنها كانت تمر بمحنة عصبية فلقد اغتصبها مجرم جبان في المنتزه العام حين كانت في طريقها إلى مكتبة الجامعة.

اغتصاب.. ياللمصيبة.. أين البوليس.. أين القانون.. هي البلد سايبه.

واكتشفت فيما بعد.....

أن الاغتصاب حكاية عادية يومية متكررة، وصل معدل جرائم القتل وحده أربعة وعشرين ألف جريمة في السنة وهناك جريمة اغتصاب كل ٣ دقائق، آخر الإحصائيات تقول بأن ٨٣٪ من الشعب الأمريكي مهدد بحدوث جريمة له.

الأغرب من ذلك أن الغالبية العظمى من الطالبات مرت كل واحدة منهن بتجربة مرعبة مماثلة بشكل ما. فإن لم يكن في الشارع فقد تقع الجريمة داخل جدران المنزل ومن أقرب الأقربين مما يثير في النفس

الاشمئزاز والذعر والقلق.

وبمناسبة مصيبة نانسي بدأت كل واحدة تستعيد قصة مريرة.
الأمريكيون يحكون كل شيء بصراحة.. وكل واحد عنده مصيبة
يحكيها على الملأ، وعلى شاشات التلفزيون نشاهد برامج الاعترافات
المثيرة التي تتحول أحيانا إلى مشاهد درامية تراجيدية ينفجر فيها
الشخص الذى يدلى باعترافه أمام الكاميرات باكيا فى نوبة نحيب
وعويل، حتى كبار النجوم. ووصل الأمر إلى مقدمات البرامج يشاركون
فى الاعترافات ومن أشهر الحوادث حكاية مقدمة برامج سوداء
محبوبة كانت تجرى حوارا على الهواء مع بنات وسيدات من ضحايا
الاغتصاب وجرائم المحارم، فجأة بدأت تندمج فى الموضوع وتعترف
على الملأ بجريمة والدها الحقير أثناء طفولتها وهم يؤمنون بأن هذه
عملية تطهير وعلاج للنفس المثقلة بالآلام والذنوب ويطلقون على هذا
الأسلوب الخروج من الخزانة، أو من داخل الدولاب

"Getting out of the closet"

اكتشفت فيما بعد...

إن كل من هب ودب يريد أن يخرج من الخزانة بحجة التطهير
والوضوح والصدق.

الشواذ يريدون الخروج من الخزانة والحياة فى النور، والشواذ
أشكال وألوان، أشياء تشيب لها شعر الوليد، ما علينا.. سألت نانسي
لماذا لم تبلغ الشرطة عن حادث الاغتصاب فأكدت لى هى والبنات أنه

الخوف من انتقام المجرم الذى عادة ما يطلع مثل الشعرة من العجين هذا إلى جانب إن الإجراءات التى تتبع فى قسم البوليس للتأكد من حداث الاغتصاب مهيئة ومؤلة للغاية، فى كثير من الأحيان تلقى المسئولية على الفتاة ومن ثم فإن معظم ضحايا الاغتصاب يلتزم الصمت.

الغريب أنه فى ظل هذا المجتمع المنفلت من كل الضوابط حيث لا يوجد ما هو أسهل من وصول رجل إلى امرأة سواء فى شكل علاقة عاطفية أو لا.. تزيد نسبة جرائم الاغتصاب.

علماء النفس يؤكدون بأن الجنس ليس هو الهدف فهو متوفر وبكثرة فإن الإنسان الذى هرسته الحضارة الغربية ومارس الحرية حتى آخر قطرة لم يعد يبحث عن الجنس الذى فى متناول يده بل أصبح يبحث عن الجنس الممزوج بالعنف وبالفسوة وأهم من هذا وذاك بروح المغامرة الشريرة والإحساس المريض بالانتصار والغلبة والمصيبة أن نصيحة البوليس شخصيا للمرأة بالأ تقاوم حتى لا تقتل، وفى حالات السرقة النصيحة «شرحه» لا تقاوم حتى لا تقتل.

صرخت ، و«الحل يابنات؟» شعرت أن الجريمة تقترب من حياتى وتقتحم شعورى الشرقى بالأمان وبأن الدنيا بخير.

قالت فيكى :

«علينا بدروس الكاراتيه والكنغ فو» والتحققت بفصل الكاراتيه للدفاع عن النفس وكانت هى المرة، كلما حاولت الزئير الكاراتيهائى

المعروف «هاها هووه» صدرت منى أصوات مسرعة لابد أن تصيب
أى مجرم بنوبة ضحك فيتركنى لحالى ثم أنا صحتى على قدى
وعظامى ضعيفة سوف أكسرها فى دروس الدفاع عن النفس ومن
الأفضل أن أحتفظ بها لأكسرها فوق رأس أى مجرم وعرفت الطريق
إلى «الميس» وهو أمان وضمان الإنسان الغلبان.

وهو رشاش أو بخاخة فى حجم الولاة أعلقها مع سلسلة المفاتيح
وحين أشعر بالخطر يقترب منى أضغط عليها فى وجه المهاجم فيصاب
بحالة شلل مؤقتة، ويتجمد فى مكانه كما قالب الثلج، حملت معى
سلاحى الجديد فى الرايحة والجاية وأنا أغنى «خلى السلاح صاحى..
صاحى.. صاحى...» ماحدث ضامن عمره فى البلد دى!

توم كروز.. للبيع!

كانت هناك سحابة من الغم والهم والاكتئاب تغلف نفوسنا. «ممکن» في المستشفى طريح الفراش وقد تدهورت حالته بعد إجراء الجراحة الدقيقة وما زال «يهو هو» في العناية المركزة. و«بنتلي» في حالة اكتئاب على ولده فلذة كبده. وفيكي في حالة انهيار عصبي وحزن مقيم تبكى ليل نهار «ممکن.. ممکن ماى دارلنج» حتى أصبحت عيناها في حجم الطماطم. ونانسى ما زالت تصاب بكوابيس الاغتصاب الرهيب، وتوابع حادث المطر الأحمر ما زالت تطاردنى في صحوى ومنامى.

أسلوب التفكير العمل الواقعى الأمريكى جعل مارى تقترح علينا الخروج من دائرة الكآبة ودوامة اليأس بقضاء أمسية ممتعة. وقالت إن السهرة تحلى في «موقف الأتوبيس». فلاقت استحسانا كبيرا

وموافقة بالإجماع.

موقف الأتوبيس؟ في إيه في الأتوبيس يا جماعة؟

ضحكت البنات وتغامزن وتلمزن.

— مفاجأة الموسم أيتها الشرقية المحافظة. اليوم أنت مدعوة (مدعوة على الطريقة الأمريكية، كان زمان!) موقف الأتوبيس لا يقف عليه إلا من هم تحت حد الفقر. الأتوبيس في الأرياف لا يركبه إلا الغلابة والمساكين من أمثالي الذين لا يملكون سيارة. وفي أمريكا كل من هب ودب لديه سيارة. والسيارات المستعملة رخيصة للغاية. إذن ماذا سنفعل في موقف الأتوبيس؟.. حتى الوقوف خطر في الشارع في مثل هذه الساعة.

ربما يقصدون مسرحية موقف الأتوبيس.. وهى من أشهر المسرحيات الاستعراضية الغنائية. واكتشفت فيما بعد...

أن موقف الأتوبيس اسم المطعم الذى ذهبنا إليه، وياليتنى ماذا ذهبت. المطعم للنساء فقط! يعنى الزبائن «كلهن» من الجنس اللطيف حتى يجلسن على راحتهن. قلت للبنات: خير يابنات، عندنا في البلد الرجال فقط هم الذين يفضلون الجلوس على راحتهم، يدخنون ويلقون بالنكات الخارجة ويتحدثون في السياسة أو الكرة أو «الستات».

أما نحن فلسن في حاجة إلى ذلك، مالها قعدة المطبخ الجميلة.
المفاجأة التي ادخرناها لى، هى أن المطعم للنساء فقط لكن جميع
الجرسونات من الشباب السينمائى!

يعنى كل جرسون يشبه نجما سينمائيا من نجوم هوليوود
ويقلمه (غير أن أمه لم «تدعو» له) فانتهى به الحال فى موقف
الأتوبيس فى وظيفة جرسون «شبه نجم».

صرخت المائدة المجاورة فى صوت واحد وقد حلت عليها مجموعة
من النساء الشمطاوات، صنف مرضعة قلاوون. توم كروز .. توم
كروز للخدمة هنا.. وأخريات طالبين بكلينت إيستوود.. أما الشابات
اليانعات الزميلات فقد طالبين بعمر الشريف (تحية) للزميلة الشرقية
المحافظة.

بعد العشاء حدث هرج ومرج، وفهمت أن هناك استعدادات
للاستعراض الراقص. المفاجأة المذهلة هى أن كل شبه نجم من هؤلاء
يقدم استعراضا راقصا. يكشف فيه عن عضلاته مثل أبطال حمل
الأثقال أو المصارعة الحرة بعد أن يخلع ملابسه قطعة قطعة وكأنه
يتمشى فى عز الشمس على شاطئ الريفييرا والحاضرات يصفرن
ويصفقن ويشجعن.

انتابتنى حالة غضب وثورة عارمة، بنات ونسوة خلعن برقع
الحياء صحيح واللى اختشوا ماتوا. جاء اليوم الذى تتفرج فيه النساء
على الرجال، «وتقولون لى تحضر وتقدم ودول متخلفة». إن التقدم

والتخلف مطاط في القاموس الأمريكى.. هذا مشهد يثير حفيظتى
الشرقية ويحرك مشاعر الاشمنزاز والقرف.

قلت للبنات :

..أسفة.. أرفض هذا الرقيق الأبيض.. وعندكم عين للشكوى من
استغلال صورة المرأة وترفضن الشعارات للدفاع عن حقوق النساء.
بصراحة شعرت برغبة شديدة فى القىء، وصممت على ترك موقف
الاتوبيس على الفور حتى لو عدت سيرا على الاقدام.

حاولت البنات إقناعى أن الموضوع مجرد مزاح وضحك برىء! إلا
أننى كنت غاضبة لدرجة أننى عدت إلى لغتى العربية عن دون قصد
وصرت أردد: الى اختشوا ماتوا.. الى اختشوا ماتوا صحيح.

سألتنى فيكى ماذا أقول بالضبط. حكيت لها الحكاية التى تعود إلى
مصر المملوكية والتى أصلها... أنه فى يوم من الأيام شب حريق فى أحد
الحمامات العامة، مثل (حمام الملاطيل) . والذين لم يستحو أى لم
يختشوا فروا من الحمام إلى عرض الشارع عراة كما ولدتهم أمهاتهم.
أما الذين استحو (أى اختشوا) فأبوا الخروج عراة فشوتهم النار
وامتلا التراث بالإشارة إليهم فى العبارة الفلكلورية المألوفة الى
استحو (اختشوا) ماتوا، وبقيتها إن الذين (لم يستحو) عاشوا.

وأنا ياعزيزتى فيكى من أحفاد الى استحو ومن سلالة الى
اختشوا..

ويحيا الشرق المحافظ.

مطعم المفاجيع !

في الأسبوع التالى حاولت البنات الاعتذار وتعويضى عن الأضرار النفسية والعصبية (بعدما عرفوا حكاية اللى اختشوا ماتوا) الواقعة على محسوبيكم الشرقية المحافظة.

All you can eat مطعم (بحق وحقيق) فى مطعم
يعنى كل .. حسب قدرتك.. كل على كيفك.. اطلب مرة واثنين وعشرا ولايهكم لأن هذا المطعم يطبق نظرية العدالة فى الدفع والفائض فى الخدمة. يعنى تدفع مبلغا محددا، وتظل تأكل وتأكل حتى تصاب بتخمة ولن تحاسب إلا على وجبة واحدة فقط.. وهذه سلسلة مطاعم متواضعة لأبناء الطبقة المتوسطة ترضى نزعة استهلاكية شرهة فى نفس المواطن.. يا مواطن.

وتقدم فيها أنواع السمك المختلفة والكابوريا العملاقة والجمبرى

والاستاكوزا وشتى أنواع القواقع.

والنظرية الاقتصادية أيها الأخوة والأخوات تتركز على أن هناك شعبا بعد جوع. يعنى مهما أكل الإنسان والتهم في نهم فلا بد للأكل أن يشبع ولا بد للمكسب أن ينتصر.

والنظرية الاقتصادية تؤكد أنه إذا كان الإقبال كبيرا والأسعار رخيصة، فإن المكسب مضمون ومأمون حتى لو أكل الناس ملء بطونهم.

وفي ظل سياسة التقشف والتوفير وفواتير الكتيبة الملاكى «فيكى» التى علمتنى أن الصداقة شىء والشغل شىء.. يعنى «بيزنس إيز بيزنس» أدفع مرتبها أول الشهر لايتقدم يوما ولايتأخر يوما. وعلى ضوء ماسبق قبلت الدعوة خاصة وأن معدتى «مششت» من البطاطس.

لكنى سألت قبل أن تطا قدمائى المطعم.

- وماذا عن الجرسونات؟

أجابت فيكى بثقة:

- من فئة اللى اختشوا ياعزيزتى.

وقد يكون الجرسونات في هذا المطعم من فئة اللى اختشوا، لكن بالتأكيد هذا القول لاينطبق على الزبائن الذين جاءوا ليأكلوا في آخر زادهم.

إنه مطعم المفاجيع، يجب أن يأتي الزبون مدججا بالوقاحة والبرود حتى يطلب مرة واثنين وعشرا.

الغريب أن الزبائن كانوا يطلبون ويكررون الطلب والجرسونات يضحكون ويداعبون الزبائن وقد جعلوا من قضية الطعام مزحة ونكتة دون حساسيات أو كسوف أو إحراج.

الناس أتت من أجل قضاء وقت ممتع ولقمة شهية وخدمة ممتازة. والأمريكيون هم الذين اخترعوا «الخدمة الممتازة».

والجرسون يأتى إلى المائدة ويقدم نفسه بالاسم قائلا:

- أنا اسمى بول، سأصاحبكم على العشاء وأكون تحت أمركم ثم يقدم قائمة الطعام وهو يبتسم ويتبادل أطراف الحديث مع الزبون.

سألت فيكى: وإحنا مالنا.. كلما دخلنا مطعمنا يقدم لنا الجرسونات أنفسهم، هو إحنا جاينين ناكل ولانطلب القرب؟

واكتشفت فيما بعد.....

أن الخدمة الممتازة لها أصول وقواعد وأولها أنك يجب أن تعرف اسم الشخص الذى يخدمك حتى تشعر بالارتياح التام.. ضحكت فيكى وطلبت منى للمرة الالف.

- تيك إت إيزى Take it easy

واستغرقت فى تفكير عميق، هل يمكن أن ينجح مثل هذا المطعم فى بلدى؟ وهل يمكن أن تنجح تلك النظرية الاقتصادية!.

لغز قتيلا الدور الثالث والعشرين!

في غمرة الصلح خير وإنقاذ ما يمكن إنقاذه ومحاولة إصلاح آثار
حادث موقف الأتوبيس، اقترحت نانسى أن أتعرف على الوجه الثقافى
المحترم للمطعم الأمريكى «ابن الناس».

- كيف يصبح المطعم ثقافيا يا أختى يانان؟
المطعم له علاقة بالمعدة
والتذوق والطعم اللذيذ، فكيف يكون المطعم ثقافيا يا أختى وله علاقة
بالعقل والتذوق الفنى؟

-إنه مسرح العشاء!!

وفي مسرح العشاء يشاهد رواد المطعم وهم يجلسون على موائد

العشاء مسرحية كاملة أثناء تناول وجبة شهية من الاستيك الهرقلى وأكواز الذرة المسلوقة والبطاطس المحمرة. وهم بذلك يضربون عصفورين بحجر. مسرح ومطعم بتذكرة واحدة. ونظرية «اثنين لواحد»، نظرية اقتصادية تسيل لعاب المستهلك ويعرفها البائعون جيداً، حيث يقنع البائع المشتري إنه يدفع ثمن منتج واحد ويحصل على اثنين... يعنى واحد ببلاش. ماعلينا..

مسرح العشاء طبعاً لا يعتبر من المسارح المحترفة تماماً، وعادة ما يعمل فيه الممثلون الفاشلون الذين لفظتهم المسارح المحترفة. لكن هذا لا ينفى أنه يخرج من بينهم أحياناً مواهب كبيرة. وكانت المسرحية فى تلك الليلة الليلية ماكبث لشكسبير. وهى غير مناسبة على الإطلاق لا لغداء ولا لعشاء.

المسرحية تراجيدية وكثيية تجعل اللقمة تقف فى الحلق، وتصيب المتفرج بتلك معوى.

وماكبث معروفة فى تاريخ المسرح بأنها مسرحية «نحس» ووشها يقطع خميرة المشاهدين من أى مسرح.

قلت لنفسى: خير اللهم اجعله خير... وتذكرت دروس تاريخ المسرح وأن الرئيس الأمريكى لنكون تم اغتياله وهو يشاهد مسرحية ماكبث.

وهذه ماكبث وأنا أعرفها جيداً. لقد وصل الأمر ببعض المسارح

الكبرى إلى التقاعس عن تقديم المسرحية من فرط التشاؤم.
تفرجنا على ماكبث وعدنا إلى منازلنا سالمات والحمد لله. لكن، أبدا
هذه ماكبث وأنا أعرفها جيدا، فكيف تفوت الليلة على خير. بعد
منتصف الليل، استيقظنا جميعا على صرخة تشق عباب السماء
وصوت ارتطام رهيب.

للوهلة الأولى تصورت أن الحرب العالمية الثالثة بدأت، أو أن قنبلة
انفجرت.. العمارة بها كثير من اللاجئين الإيرانيين الهاربين من سعي
الثورة الخمينية!

يمكن ثار بايت للمافيا.. هناك ثلاث عائلات إيطالية من صقلية
وهؤلاء صعايدة المافيا، ومعروفون في أمريكا بأنهم فئة «الجريمة
المنظمة» Organized Crime يعنى تنظيم إجرام مع سبق الإصرار
والترصد عيني عينك والبوليس لا يقدر عليهم... لكن هؤلاء يتركزون
في نيويورك والمدن الكبرى، مالهم ومال الريف الهادئ.
بعد قليل... حضر البوليس.

وحضرت ثانى جريمة فى حياتى... عن كذب
كلمة جريمة كانت بالنسبة لى من قبل، كلمة خيالية مفرغة من
معناها الحقيقى.. الجريمة كانت عندى رواية مثيرة لأجاثا كريستى
أو فيلم بوليسى لأستاذ الرعب السينمائى هيتشكوك... كانت
الجريمة بالنسبة لى وهما وخيالاً، فأصبحت حقيقة لا احتمالا.

الجريمة كانت خبراً في الصحيفة أو على شاشة التلفزيون يفصل بينى وبينها الواقع، فجأة أصبحت على عتبة بيتى، جزءاً من حياتى اليومية.

انتشر الخبر.. الساكن فى الدور الثالث والعشرين سقط من الشرفة «تانى»!

من الجانى؟ الفاعل مجهول، ربما انتحر، ربما دفع به أحد لاندرى.

ظل لغز قتل الدور الثالث والعشرين مبهماً، وبالطبع لم أفكر فى الانتقال من المبنى فقط، بل من المدينة بأكملها، خاصة وأن العام الدراسى قارب على الانتهاء.

وفى نشرة الأخبار المحلية التلفزيونية عرفنا السبب، وبطل العجب.. عفواً

زاد العجب، والدهشة. الجريمة عاطفية، قديمة. كل يوم من ده، أكثر من الهم على القلب. لكن هذه المرة القاتل ليس حبيبة القلب، بل حبيب القلب. وأعوذ بالله من غضب الله.

الأستاذ «المجنى عليه» القتل، كان يعيش مع صديقه وتحتها ألف خط.

أستغفر الله العظيم. وهذه الفئة من الرجال الشواذ يطلقون عليهم فى أمريكا لقب gay لأنهم رفضوا تماماً لفظ شاذ واعتبروها إهانة. وكلمة gay تعلمناها فى المدارس بمعنى إنسان مرح، محب للبهجة

والانبساط، فقدت الكلمة معناها الاصلى وأصبحت صفة لجنس ثالث وأعوذ بالله من غضب الله.

القتيل «المرح» أدى به مرجه إلى حتفه. فقد هجره حبيب القلب مع «مرح» آخر. فأكلت الغيرة الحبيب الاول وفي مشاجرة عاطفية ملتهبة ألقى به من الدور الثالث والعشرين «قلت لكم جريمة عاطفية». الشيء المثير للدهشة والملفت للنظر أن الجميع كانوا يناقشون فكرة الخيانة وأن القتل يستحق ما جرى له لأنه خائن. أما حكاية العلاقة الشاذة «أعوذ بالله» فلم تلفت انتباه أحد.

سألتنى فيكى:

– مارأيك في الأبعاد الإنسانية لهذه الجريمة العاطفية؟

من الجانى؟ ومن المجنى عليه؟

قلت لها :

– يافيككتوريا يا أختى، الحقيقة كان يجب أن يأخذوها من قاصرها ويقفز الثلاثة سوا سوا مع بعضهم مرة واحدة من الدور الثالث والعشرين ويريحونا.

والله سبحانه وتعالى خلق آدم وحواء، ولم يخلق آدم وجورج، جهنم وبئس المصير.

اعتبرتنى فيكى متخلفة رجعية.

ابتسمت في فخر وثقة وقلت لها:

يحيا الشرق المحافظ.

كوكاكولا ولبان .. وبنويّة!

لاقى الفصل الذى أقوم بتدريسه وهو مادة حركة الممثل نجاحا كبيرا فى الفصل الدراسى الأول ومن ثم طلب منى «بيرت» رئيس القسم أن أقوم بالتدريس يوميا بناء على طلب جماهير الطلبة، لكن الشرط نور بدون أى زيادة فى قيمة المذحة. قبلت هذا الشرط وحاولت تقليد «ستيف» واتصلت بالطلبة قبل بداية الفصل الدراسى للإعداد التمهيدى للمادة.

اكتشفت بعد مناقشات طويلة مع «ستيف» أن نجاح الطالب ونبوغه يعنى نجاح ونبوغ الأستاذ.. وهذا هو المقياس الحقيقى. يعنى لم يكن الدكتور «ستيف» يهتم بالطالب، لأنه رجل ابن حلال وطيب أو لأنه مخلص ودؤوب فى عمله فقط، بل لأنه يرى أن النجاح نتيجة يقتسمها الأستاذ والطالب. يعنى لو رسب عدد كبير من الطلبة، فهذا

يعنى أن الأستاذ راسب هو الآخر فى مهنته!
ولو تفوق الطلبة ونبغوا فهذا يعنى أن الأستاذ نابغة، والحمد لله
طلعت نابغة.

فى نهاية العام الدراسى نجح طلبة فصلى جميعا بتفوق، وأقاموا لى
حفلى وداع جميلا فى حديقة الجامعة. وقدموا لى هدية «تى شيرت» أو
القميص القطنى الأمريكى الشهير وقد طبعوا عليه خصيصا اسمى
والعام الدراسى وعبارة «نحن نحب نفرتيتى» ويحيا الشرق المحافظ.
وبمناسبة الـ«تى شيرت» تعلمت قيمة الأشياء الصغيرة كهدية
تحمل أكثر من معنى، فليس المهم هو ثمن الـ«تى شيرت» بل المهم
الفكرة والمجهود فى أن القميص فريد من نوعه بطبع الاسم والسنة
الدراسية مما يضفى خصوصية جميلة على الهدية. وقد تغير أسلوبى
تماما فى ارتداء الملابس وأصبحت الـ«تى شيرت» قطعة أساسية فى
دولاب ملابسى، وفى الأسبوع الأول من الدراسة كنت قد تأنقت على
سجدة عشرة وارترديت طاقما أنيقا للغاية ووضعت أظنانا من
مستحضرات التجميل على وجهى وذهبت لى الجامعة فوجدت الجميع
يلبسون الجينز والـ«تى شيرت» وينظرون لى فى دهشة وسخرية
متسائلين: ما هى المناسبة؟ فلما تساءلت أنا أيضا أى مناسبة؟ قالوا
لى: كل هذه «الانتكة والحنطة يانفرتيتى»، هذه جامعة وليس عرضا
للأزياء، خجلت ومن يومها تعلمت البساطة، البساطة والجينز

والدتي شيرت» والكوتشى، الزى الشعبى الأمريكى.
فى نهاية الحفل طلبوا منى أن ألقى خطبة أتحث فيها عن أكثر
الأشياء التى أشارت دهشتى فى أمريكا أرض اللبن والعسل، قلت
لنفسى: أرض اللبن والعسل والدم لكن خلى الطابق مستور يابنت
ولا داعى لفتح سيرة الاغتصاب والانتحار والقتل.. وخلينا فى
الإنسانيات.

تذكرت الخطبة العصماء التى أعدتها عن الشرق المحافظ للسيد
رئيس القسم فى الطائرة قبل أن أصل إلى أمريكا، بالطبع تراجعت
واعترفت لهم أننى فى حيرة من أمرى، هذه أرض المتناقضات، فى
الجامعة الأستاذ يحترم الطالب، والطالب يحترم الأستاذ لكن داخل
إطار سلوكيات مختلفة، اعترفت أننى صدمت وذهلت حين وجدت
الطلبة ينادون الأساتذة بالأسماء المجردة.. معايير الاحترام فى بلدى
تحتم علينا استخدام ألقاب الأستاذ والدكتور وحضرتك... وسيادتك..
وسعادتك.. ومعاليك.

وحين حاولت ترجمة هذه الكلمات إلى الإنجليزية ترجمة حرفية
تحولت إلى عبارات كوميدية تثير الضحك والعجب وأنا فى حيرة، هل
الاحترام لفظ أم ممارسة سلوك؟.

قلت لهم إننى اندهشت حين وجدت السيد رئيس القسم يغسل
الصحنون فى بيته، ويعد لى القهوة بيده فى المكتب، وحين أبديت له

دهشتى قاططة: ولماذا لا تترك هذه المهمة للسكرتيرة؟! ... ده أنت رئيس قسم قد الدنيا، فقال لى: السكرتيرة لديها مهام أهم من القهوة وهى كتابة الجداول وإعداد خطابات الميزانية ، نحن نؤمن بمقولة:

Help Your Self

اندهشت حين وجدت الطلبة يستلقون فى استرخاء على أرض الفصل الدراسى يحتسون القهوة والكوكا كولا ويمضغون اللبان، ويناقشون الأستاذ فى جدية صارمة فى موضوع التفكيكية والبنوية! اندهشت واحترت، هل هذه بساطة أم استهتار؟.. هل الاحترام سلوك ظاهرى أم ممارسة ضميرية؟ هل الالتزام مبدأ أم واجب؟

ودفعت من الشيفروليه

وانتقلت من الريف إلى المدينة... إلى البندر الأمريكى، العاصمة «واشنطن» دى سى «أو اختصار كلمة مقاطعة كولومبيا، لأن هناك ولاية واشنطن فى الغرب الأمريكى وعاصمتها «سياتل».. أما العاصمة، فهى المدينة الوحيدة فى أمريكا التى لا تنتمى إلى ولاية بصفتها العاصمة.. على سن ورمح!

وتقع واشنطن دى سى بين ولاية فيرجينيا وولاية ميريلاند، حيث تعتبر تلك منطقة الضواحي... وقد التحقت بالعمل فى واشنطن وبالدراسة فى جامعة جورج واشنطن، أما محل الإقامة فكان فى ولاية فيرجينيا، يعنى الانتقال يوميا على الطريق السريع لمدة ساعة فى الذهاب وساعة فى الإياب. وعلى بابا بعد الضنا.. لابس حرير فى

حرير.. بعد البطاطس المسلوقة والسرير في الدولاى والسير على
الأقدام ستة أميال... حصلت على وظيفة ميري. مذيعة فى القسم
العربى بإذاعة صوت أمريكا.. قلت لهم: أنا عندى خبرة وعملت من
قبل مذيعة فى بلدى... قالوا: آسفين لآبد من الـ «Test» «الاختبار»..
الامتحان .. وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان وربنا كرمنى، ونجحت
وتم تعيينى على درجة وأصبحت موظفة ميري وبمرتب شهرى!!
يعنى أمان وضمن... وتقسيط!

وعلى بابا بعد الضنا يركب سيارة أمريكية والسيارة ليست
رفاهية أمريكية، حيث أن المساحات شاسعة والمسافات ممتدة، وبين
البيت والبقال ٨ أميال على الأقل، ومعظم الناس يسكنون الضواحي
وهناك شوارع بأكملها فى واشنطن تصبح خاوية لاتجد فيها صريخ
ابن يومين بعد السادسة مساء حيث لا يوجد بها سوى أبراج المكاتب
وإذا وجدت عمارات سكنية أو منازل فهى قليلة. ويسكن الناس عادة
فى الضواحي، فى بيوت منفصلة أنيقة بدائق وحمامات سباحة، أو
يسكنون فى ناطحات سحاب وعمارات شاهقة ملحق بكل عمارة أنيقة
ناد للرياضة وحمام سباحة وملعب للتنس.. وقد اخترت أن أسكن فى
الضواحي بالطبع مثل الناس «الشيك» المحترمين، ومن ثم أصبحت
السيارة ضرورة حتمية، لأن أقرب محطة للأتوبيس تقع على بعد ٣

كيلومترات من منزلى الكائن فى قلب غابة جميلة مع مجموعة من البيوت المماثلة وكلها نسخة طبق الأصل من بعضها والتقسيم ممكن مادامت هناك وظيفة.

لكن لابد من المقدم... مقدم السيارة، مهر العروسة الشيفروليه ولما كنت لا أملك «شروى نقيير» ومفلسة تماما، صعبت على زميلى المصرى المهاجر منذ خمسة وعشرين عاما... وعلى الرغم من أنه تأمرك تمام التمام، وأصبح أمريكانى، إلا أن عيونه مازالت سوداء وشعره أجمع ولم يفقد شهامة وأخلاق وطيبة ابن البلد... ودعونى أتوقف أمام هذا التعبير الشائع الذى يمر علينا مر الكرام تعبير... «ابن البلد» إنه تعبير بليغ عن الأصالة والرجولة والعطاء... قرر زميلى الأستاذ «إبراهيم غباشى» أن يقرضنى مقدم السيارة، على أن أرد الدين على دفعات بالتقسيم من مرتبى.

وافقت على مضض وأنا فى نصف هدومى من الكسوف، لكن الأستاذ غباشى الطبيب ابن الحلال ابن بلدى صمم على هذا القرض الحسن «وبدون فوائد».

نزلنا نتسوق.. نعمل شوبنج Shopping .. شوبنج سيارات. دخلنا أنا والأستاذ غباشى معرض سيارات أنيقا، واستقبلنا البائع استقبالا حافلا ولا استقبال الأميرة ديانا فى زمانها، سألت الأستاذ

غباشى: هو أنت تعرفه؟ فرد ضاحكا: بالطبع لا . لكن مادام هو بائعا وأنت مشترية فلا بد أن تعاملى معاملة الأميرات، قدم لنا البائع القهوة والشاي وشعرت بالاهمية والحيثية لأننى «مشتريه هانم» وأكدت للبائع أننى حفيدة ملكات وملوك وحدثته عن جدى «خوفو» وجدتى «حتشبسوت» وبنت عمى «الملكة نفرتيتى». سألنى السؤال التقليدى الذى يسأله كل أمريكى لحظة أن يعرف أنى مصرية.

- شفت الهرم؟ شكله إيه؟

كنت أبتسم كل مرة وأقول لهم أننى عشت سنوات عمرى كلها فى الهرم أفتح نافذتى كل صباح على هذا المشهد الرائع المحفور فى خلايا جسمى، الذى يسرى مع كرات دمى، كنت أحكى لهم عن الليالى القمرية التى كنت أذهب فيها مع والدى الغالى للجلوس تحت سفع الهرم أتأمل أحجاره العملاقة وأغوص داخل كل حجر أتمرغ فى سبعة آلاف سنة هى عمرى الحقيقى.

كانت كلماتى الصادقة تذهل المواطن الأمريكى الذى لايعرف شعور الانتماء الحقيقى إلى حجر، التاريخ العريق يسرى فى قدم المواطن المصرى فى كل خطوة على أرض مصر، هناك تيار خفى ساحر اسمه الانتماء إلى أرض وتاريخ وهذا مالايعرفه المواطن الأمريكى الذى احتفل بمرور مائتى سنة على عمر أمريكا، وكل مواطن أمريكى

يبحث عن جذور له في قارة أخرى وفي بلد آخر وفي زمن آخر.
عرض علينا البائع أشكالاً وألواناً من السيارات وقدم لنا مفتاح
سيارة أعجبتني وقال:

- خذى لك لفة، جربى السيارة «وكاننى سأجرب حذاء» عدنا إلى
المعرض وملأنا الاستمارة «فاكرين التليفون» الاسم والعنوان
والوظيفة واسم الضامن «الاستاذ غباشى الله يعمر بيته وحديقته
الأمريكية» ودفعنا المهر «أقصد المقدم» واتفقنا على القسط الشهري
«النفقة» وإذا بالبائع يعطينى المفتاح مرة أخرى:

- تفضلى سيارتك الشيفروليه الجديدة لنج على الزيرو!! شيل.
الاستلام فوراً والدفع على أقل من مهل، ولما كان الاستاذ غباشى
يقود سيارته وأنا لا أملك رخصة قيادة أمريكية وجدت نفسى أواجه
تلك المعضلة.. أصبحت أملك سيارة لكنى لا أستطيع قيادتها!!

اتصلنا بزميل ثالث جاء على الفور واحتفلنا باستلام السيارة
الجديدة ووضعناها أمام باب المنزل.

فى اليوم التالى بدأت المذاكرة لدخول اختبار القيادة، الجانب
النظرى هو حفظ قوانين المرور والعلامات والإشارات عن ظهر قلب
نجحت فى الاختبار النظرى والحمد لله... وبقي الامتحان العملى ويوم
الامتحان... يكرم المرء أو يهان، جلست إلى جوارى ضابطة الشرطة

المتحنة المتجهمه المتوجسة شرا من أمثالى ولم أكد أعتدل فى جلستى
على مقعد القيادة وقبل أن أدير مفتاح المحرك، شخطت فى الضابطة
المفترية وقالت بحسم:
- راسبة.

هرولت خلفها راكضة.
- فيه إيه ياكابتن.. راسبة... ياللمصيبة.. لماذا ياكابتن؟!
ده أنا طول عمرى الأولى على الفصل ولم أعرف الرسوب ولا
السقوط ولا كل هذه المهانة.

أعطتنى الضابطة المفترية ضهرها ومضت فى لامبالاة.
بكيت... وكانت كل تفسيراتى تأمرية وشعرت بالاضطهاد والقهر
وقلت للأستاذ غباشى: الست دى عنصرية... تكره الأجانب.
ضحك الأستاذ غباشى قائلاً:

- أمريكا بلد كلها أجانب فى أجانب.. هل ياترى قمت بربط الحزام؟
أسقط فى يسدى... هل يمكن أن أرسب فى اختبار القيادة لهذا السبب
التافه؟!؟

قهقه الأستاذ غباشى بصوت عال وقال:
- تافه.. هل تعرفين أن هناك غرامة فادحة على كل من لا يربط
حزام الأمان.. السائق.. والشخص الذى يجلس بجواره... والقانون

يحتم على ربط الأطفال في الكرسي الخلفى وممنوع منعاً باتاً أن
يجلس الطفل في الكرسي الأمامى.

وللمرة الثانية بنجاح كبير.. رسبت..!

على الرغم من أنني تحزمت بالحزام الأسود وحرصت على
الابتسام فى أدب جم للضابط المتجهم الذى قلب شفتيه فى امتعاض
وأنا أقود السيارة وحين عدنا أدراجنا قلت له:

- إيه رأيك ياكابتن إن شاء الله خير ويكتب لنا النجاح على يدك يا
ابن حواء وأدم.

- راسبة! إنك لم تتوقفى تماماً أمام كلمة Stop أو «قف».

- سألته :

- «قف» لمن؟.. ولا يوجد صريخ ابن يومين فى الشارع؟

قال لى:

- ومن يدريك أن تندفع إليك سيارة فجأة من أى شارع جانبى،

راسبة؟

قضيت الليلة فى نحيب وعويل، وتعقدت من القيادة على الطريقة
الأمريكية... لكن لا مفر... إن كنت قد استأجرت «فيكى» للكتابة على
الآلة الكاتبة إلا أن استئجار سائق فى هذه البلاد مع إمكانياتى المادية
من سابع المستحيلات... لابد أن يكون الوالد مليونيراً و«بارم ديله»

«وحتى هؤلاء يعملون جرسونات» .. آه يابلد الاعتماد على الذات

Help Your Self

للمرة الثالثة بنجاح كبير... نجحت.. بعد أن سرت على الصراط
المستقيم والتزمت بقواعد المرور الأمريكية «حرفيا»! وسوق على
مهلك سوق.

كانت أواصر الصداقة قد توطدت بينى وبين فيكتوريا والأستاذ
الكلب «بنتلى» وولده «ممكن»، ولم نعد نستطيع الاستغناء عن بعضنا
البعض: ومن ثم وقبل مغادرتى ولاية «كنتاكى» فى الغرب الأوسط
«بلاد الفلاحين الجوانية»، كنت قد أقنعت ثلاثا من صديقاتى وعلى
رأسهم «فيكى» بالهجرة معى من الريف الهادئ المتخلف إلى البندر
المتقدم الذى يعج بالحياة والحركة، وما صدقت البنات لأن هذه هى
مرحلة كل فتاه أمريكية ريفية تبحث عن المستقبل والنجاح والشهرة.
انتقلن معى إلى البندر والتحقت جميعا بقسم الدراما بجامعة «جورج
واشنطن» فى العاصمة الأمريكية.

لا يخفى عليكم بالطبع أهدافى الخفية فى الإصرار على مصاحبة
فيكى ألا وهو استعبادها واستغلالها فى الاستمرار فى الكتابة على الآلة
الكتابة، لكن هذه المرة كان على الانضمام لجحافل الشباب الأمريكى
الذى يعمل بجهد وتعب كى يوفر نفقات الدراسة من عرق جبينه فلم

يعد عندي لامنحة ولا «يحزنون». وكان على أن أدفع «دم قلبي»
دولارات مصاريف دراسة جامعية.

وبين إيجار البيت وقسط السيارة ومصاريف الجامعة ومرتب
«فيكي» ضاع المرتب وعدت إلى حياة البطاطس المسلوقة، وإن كنت قد
أدخلت عليها بعض التعديلات وتعلمت طريقة شواء البطاطس
بقشرتها في الفرن وهو ما يطلقون عليه «البطاطس بالجاكت»
وأحشوها بالبصل المفروك بالملح والفلفل الأسود مع قليل من الزبد
فتاتي بنفس تأثير الفول من ملء البطون وتنبله العقول.

دعانا الأستاذ «جيمس» أستاذ مادة الديكور على الغداء في الخلاء
في عطلة نهاية الأسبوع.. وقال في حيثيات الدعوة أن «أرنست» طباخ
ماهر «ماحصلش في بر واشنطن وضواحيها»، وقال إن «أرنست»
سيقوم بعمل «الباربكيو» «شواء اللحم على الفحم».

تعجبت، أنا أعلم أن مرتبات أساتذة الجامعة ضعيفة وكحيانة
للغاية فمن أين له بأجر الطباخ!!!

حتى لو كان والده مليونيراً على ضوء فكرة استقلال الابن عن أهله
فهو أستاذ جامعة «على قده» وعادة أساتذة الجامعة يحبون
ويفضلون ويؤمنون «بعيشة التقشف».

طبعاً نضع تحت كلمة «على قده» و«التقشف» ثلاثة خطوط، لأن

مفهوم التقشف الأمريكى هو أن يكون لديك بيت وسيارة حتى لو كان بالتقسيط.

التقى فوج السيارات المحملة بالطلبة وأعضاء هيئة التدريس وأهلهم وأطفالهم واتجهنا إلى الخلاء وأصبح عندى الآن سيارة ولى وضع اجتماعى. كان الغداء فى «الهو» فى غابة رائعة من الأشجار الباسقة المتعانقة ولم تكن «الدنيا ربيع والجو بديع» على حد قول «صلاح جاهين». كان هذا الموسم هو بداية الخريف، أجمل أوقات السنة فى ولاية فيرجينيا. الطبيعة البديعة فى أجمل صورها وسبحان الله، لم أكن أعلم أن الخريف قد يكون بكل هذا الجمال، مفهوم الخريف عندى هو الرحيل والحزن والخطوة الأولى على طريق الشيخوخة لكن خريف فيرجينيا يعتبر من أجمل أيام السنة.

سبحان الله، أوراق الشجر ترسم لوحة فنية خيالية بديعة.. أوراق الشجر خضراء.. وصفراء.. وبنية.. وحمراء.. ووردية.. وبنفسجية.. وبرتقالية.. والأرض مفروشة ببساط من الأوراق المتساقطة الذابلة التى جعلتنى أشعر أنى أخطو داخل لوحة من لوحات «فان جوخ» أو «موني».

اختلطت رائحة الشواء برائحة الأعشاب النضرة وكان من أول واجباتى المشاركة فى مهام نصب الخيام وهى عملية تتطلب حفر ودق

وشيل وحط.. ومجهود عضلى عنيف. وأنا يا أخواتى من بلد الواد «بليه» وعم «رزق الساييس» و«صبحى الفراش» وهذه بلد لا تعرف تلك المهن الغريبة، قلت للاستاذ «جيمس»: نحن نشترى حوائجنا بالسلسلة المدلاة من الشرفة.. أنا يا أخواتى من بلاد الابن المدلل «وكوباية ميه يابت يا فتحية وحضرى العشاء ياماما».

لا ماما ولا بابا.. وهذه الفسحة الخلوية التى يطلقون عليها Camping أو إقامة معسكر، وقد انخلع ذراعى أثناء نصب مقصوفة الرقبة الخيمة وادعيت أننى لم أعد أستطيع العمل ولا حتى حمل زمزميات الماء والشاى والقهوة.. جلسنا ناكل الهامبورجر واللحم المشوى والبطاطس الشيبسى، ونغنى .. سألت:

- فىن الفسحة بقى يا جماعة، ماكننا أكلنا الهامبورجر فى بيتنا.. كل هذا المشوار حتى ناكل هامبورجر!!
..قالوا لى:

هذه هى الفسحة.. «واتعشى واتمشى» فى الغابة.

واكتشفت فيما بعد....

أن «أرنست» ليس الطباخ.. بالطبع لا.. «أرنست» هو «المدام» حيث أن الدكتور «جيمس» يقيم مع «أرنست» منذ خمس عشرة سنة على الطلوه والمرة «هما متعاهدين»!
تذكرت قصة الدور الثالث والعشرين وأقشعر بدننى.. وأعوذ بالله

من غضب الله... ورايا ورايا.. والأستاذ «جيمس» يعلن الموضوع بصراحة. والموضوع عادى بالنسبة للجميع.. إلا أنا الوحيدة التى وقف الموضوع فى حلقى.. أدركت أننى لابد أن أتعامل بديبلوماسية سويسرية وحياد غير إيجابى وأخرس وأجعل شعارى «وأنا مالى» فهذه هى الوسيلة الوحيدة من أجل البقاء عاقلة والإبقاء على عقليتى الشرقية فى مجابهة منطق العقلية الغربية!

دعانى «أرنست» إلى فسحة والسير على الأقدام فى الغابة وكان الجو بارداً وقد اقتصعردنى لأسباب عديدة.. نشفت من البرد والأستاذ «أرنست» يشير إلى أنواع الطيور المختلفة حيث أن هواية مراقبة الطيور هواية أرستقراطية وبعد أن كدت أتجمد من البرد شعرت أننى لم أعد قادرة على السير «كسحنى أرنست» ساعة فى مراقبة «البوم» و «العصافير» وأنواع «العندليب» المختلفة، وظل يشير هذا «بلبل قادم من غابات الأمازون» وهذا «كروان حضر من ربوع اسكتلندا» وهذه «أم قويق من المكسيك» وظل يدون ويدون فى مفكرة فى يده، سألته ماذا تدون يا «أرنست» قال: أنواع وعدد الطيور، قلت له: لماذا يا أرنست؟ قال: حتى أعرف كم بلبلا شاهدته فى حياتى؟! لعنت المعسكرات وسنينها، أشعلوا النار للتدفئة بعد أن كنت قد دخلت فى مرحلة «التلثج» سألت على مضض:

- مش حنروح بقى يا جماعة الخير؟!

- لا يا نفرتيتى.. هذا معسكر.. سوف نبني في الخلاء والعراء والهواء الطلق.. إن الهواء منعش للغاية.

وأسقط في يدي «اتكلف» في شنطة النوم وهي عبارة عن لحاف سميك على شكل شوال. لم يمنع اللحاف رطوبة الأرض من اختراق عظامي، ولم أستطع النوم داخل الخيمة المتر في متر ولمبة جاز حديثة بالبطارية تونس وحدتى.. وأصوات صراصير الليل ونعيق البوم تعزف من حولي سيمفونية الرعب، وقد تكون هناك سحلية تائهة أو ثعبان لطيف خرج للتسلية على أمثال، والجميع في حالة انبساط بحياة المعسكرات وأنا أتساءل: ماهى النظرية يا جماعة؟ فين الفسحة، وماله التليفزيون والمدفأة الكهربائية ودفء السرير الوثير.. اعتبرونى برجوازية مدللة لأعرف قيمة الطبيعة الصامته و«مش وش نعمة»!

وحتى تصبح النزهة الخلوية ذكرى لا تنسى تكلمت الطبيعة وخرجت عن صمتها وعزفت لنا السيمفونية الشهيرة «سيمفونية البرق والرعد والمطر» وتكومتنا داخل الخيم نرتعد وتذكرت ساعتها أن زحام أى أنوبيس في القاهرة في هذه اللحظة هو الجنة ونعيمها! وتوبة من هذه النوبة الخلوية الهبابية..

وجهة نظر!

خبر مزعج.. مرعب.. مأساة عاطفية.. تراجيديا إنسانية.
«أرنست» مريض.. عنده «الإيدز»!

يا واقعة سوداء يا أولاد.. ساد الحزن والغم والنكد أرجاء القسم
واغرورقت العيون بالدموع كلما تذكرنا فسحة الخلاء وساندوتشات
الهامبرجر اللذيذة من يد المأسوف على شبابه، كان الجميع سيكون
ويولولون حزناً وأسفاً..

Oh.. My God.. Oh My God.. «يا ربى.. يا ربى» .. وأنا
أطم الخدود رعباً وذعراً فلقد أكلت ساندوتش الهامبرجر صنعة
أيدين الأستاذ «أرنست» بسلامته ولم أكن أعرف.

يقولون إن العدوى لا تنتقل إلا بين الجماعة المرحين ونظريتي
السويسرية تقول «إحنا مالنا» وهذه هي آخره المرح والفرح الشاذ،
قلت لفيكى:

— يا فيكتوريا.. يستاهلوا كل اللي يجرى لهم.. عندنا في البلاد
يقولون: «الذى يحمل قربة مثقوبة تنقط فوق رأسه وتفرقه»،
يقولون: إن الإيدز ينتقل عن طريق الحقن الملوثة.. «إحنا مالنا»! لكن
كيف لى أن أضمن أن أرنست لم يחדش أصبعه بالسكين.. «يا واقعة
سوداء».. ربما جرح أثناء عملية الشواء «ينشوى في جهنم».
ظلت هلاوس الرعب الرهيبة تطاردنى بقلقى الشرقى الذى لا

يعترف بكلام العلماء وخاصة أنني أخشى من يعطس معى فى حجرة واحدة.. فمابالكـم «أرنست» عنده إيدز وكان يومها يعطس كثيراً.. «يا غلبى».

لم أهدأ ولم يطمئن لى بال إلا حين أكد لى طبيب فى مستشفى الحى أن الإيدز «بره وبعيد» لا يمكن أن ينتقل بالرداذ ولا بالمصافحة ولا بالمناديل الورقية.

«أرنست» مريض وعرفنا.

ماذا عن الدكتور «جيمس» الذى يحاضرنى يومياً.. بصراحة كرهت الجامعة والعيشة لكنى رأيت فى عيون البعض تعاطفاً وإنسانية وفى عيون البعض الآخر «مثل» القلق والرعب والخوف من الأستاذ «احتمال عدوى».

رحمنا الدكتور «جيمس» لأنه طلب إجازة بدون مرتب لرعاية «أرنست» الذى تدهورت حالته بسرعه رهيبه ونقل إلى المستشفى. ومات «أرنست».

لكن هل يموت مثله مثل الناس؟!.. طبعاً لا! لازم يعمل «شاذ» برضه!

طلب المرحوم «أرنست» أن تحرق جثته وأن ينثر الرماد فى بحيرة «البوتوميك» الجميلة وقد علق الجميع أنها فكرة رومانسية رائعة.

وكننت قد شاهدت جنازات خواجاتي كثيرة من قبل في الافلام
الاجنبية، ومن ثم «فإن كنت في واشنطن فافعل كما يفعل
«الواشنطنيون» تقمصت شخصية «المعزيات» الأمريكيات ووضعت
قبعة سوداء بفيونكة قطيفة وستارة من التل الأنيق تتدلى على وجهي
ولبست الأسود وذهبت في ملابس الحداد الخواجاتي إلى جنازة
«أرنست».

طبعاً لا يوجد لطم ولا ندب ولا أقوال ماثورة مثل «ماكانش يومك
يا أرنست» لكنهم كانوا جميعاً «متشحتفين»، وحزب المرحين كله
موجود يقدم فروض العزاء والعدد في الليمون والغريب أن كل مرح
من هؤلاء عنده شنب يقف عليه الصقر.

ووقف الدكتور جيمس يلقي خطبة يعدد فيها مآثر المرحوم ومنها
بالطبع ساندوتشات الهامبرجر وكان الجميع متأنقين في أبهى الحلل
«تقولش رايجين فرح».. سألت «فيكي»:

— لماذا كل هذه الأناقة؟!

قالت لي:

— إنه احترام الموت..

حتى المرحوم شخصياً يلبسونه أبهى حلة ويضعون له المساحيق
والروج وأحمر الخدود حتى لا تبعدو عليه زرقة الموت، حيث لابد من

وداعه في أجمل صورة، وهناك حانوتى شغلته «ماكير نوتى» يقوم
بتصنيف شعر وعمل ماكير الميت.

يمر الجميع حول النعش لإلقاء نظرة الوداع على المرحوم وترك
وردة ، بعدها ينقل النعش في العادة للدفن حيث يوارى الثرى
لكن لا.. الأستاذ أرنست طلب الحرق. قال:

«أنا أستهال الحرق وليس أقل من الحرق». هو حر و«إحنا مالنا،
دخل النعش أمامنا على قضيب كهربائى كأنه علبة سردين أو صاج
سمك مشوى ودوغرى إلى المحرقة الكهربائية وخرج الأستاذ
«أرنست» من الجهة الأخرى محروق هباب داخل قنينة زرقاء أنيقة
ومحكمة الإغلاق.

اتجه موكب السيارات السوداء الليموزين الأنيقة الخاصة
بالجنازة إلى البحيرة لإلقاء رفات الذرات الأرنستية في الماء والهواء.
كان المرحوم يريد أن يطير مثل العصافير فوق الأشجار وبين
السحاب وفي قلب الأمواج وفي قطرات المطر.. يصبح ذرة في الهواء..
يدخل في الأكسجين وثانى أكسيد الكربون وفي الشهيق وفي الزفير..
نظرية برضه!

أصابتنى حالة غثيان وهم يلقون برفات المرحوم في الهواء
ويهتفون:

- وداعا.. وداعا.. مع السلامة يا «أرنى».

وصدى الصوت يتردد في الأفاق وقد انحشرت في حلقى ذرات ترابية وأنا الطم ليس على «أرنى» بالطبع بل على حظى العاثر الذى جعل «أرنست» ينحشر في حلقى. نظرت إلى فيكى وقد ركبني ستون عفريتا.

- يا فيكتوريا.. أنا لا أريد أن أستنشق «أرنى» يا أختى.
هيا بنا وكفى.

شجبت «فيكى» واستنكرت قرار مقاطعة موكب استنشاق رفات «أرنست» حتى تظل ذكراه في نفوسنا وفي أنوفنا أبد الأبدین. صرخت لا يا عزيزتى رفات إيدز.. يا حلاوة.. هذا هو ما ينقصنى في هذا البلد!!
أصرت «فيكى» على ذهابنا إلى حفلة الغذاء على روح المرحوم وهذه من طقوس العزاء أيضا فبعد وداع المأسوف على شبابه الفقيد يذهب الجميع لحفل أكل وشرب وانبساط على روح المرحوم أى والله!!
هكذا.. هذه هى فلسفة التعامل مع الكارثة الصدمة!!.. الحزن.. لكن الحياة لابد أن تستمر.

وكلما انبسط المعزون آخر انبساط وفرفشوا آخر فرفشة كلما كانت التحية مخلصة لروح المرحوم الذى أصر أن تكون حفلة الوداع راقصة، والمرحوم كان مرحا يحب المرح!!

وراح في ستين حريقة!

قلت لفيكى: يا أختى قلبكم الحديد المثلج في فريزر المشاعر.. حد له نفس يتسمم.. المفروض إننا في حالة حداد وحزن.. في البلد نبكى ونلطم الخدود ونصرخ ونبدى الحزن قولاً وفعلًا، عندنا تراث اللطم الشعبى وهو تنفيس سيكولوجى عن الحزن العميق ونحن نرتدى ملابس الحداد السوداء سنة أو أربعين يوما وهذا أضعف الإيمان. أما أنتم فكل واحد منكم قد أتى إلى الجنازة على سنجة عشرة لمدة يوم واحد فقط وبعدها العودة إلى الـ«تى شيرت» والجينز.. تتأنقون للجنازات.. وتتبسطون في الحفلات وفي الحياة اليومية وكل حاجة عندكم بالمقلوب، ولكم شهية للأكل والشرب على روح المرحوم.. نحن نشرب قهوة سادة لأن السكر متعة وطعم لذيذ.. يعنى نحن يافيكى نحرم أنفسنا من ملعقة سكر احتراماً لذكرى الفقيد.. نحن نبكى في العزاء ونترحم ونقرأ القرآن ونحول جلسة العزاء إلى جلسة علاجية جماعية يبكى فيها كل منا همومه ويترحم فيها كل منا على موته.

وبصراحة يافيكى أنا كنت ثورية انتقادية أعترض على تقاليدنا الشرقية في العزاء. لكنى أتعجب.. هل نحن على حق أم أنتم؟ لقد دفنتم.. أسفة.. لقد نشرتم رفات الرجل منذ دقائق وما شاء الله شهيتكم مفتوحة للأكل والشرب والنميمة وكل معزى والتانى يدخل

وفى يده كعكة أو دسطة جاتوه، هل هذا معزى أم عيد ميلاد؟
واعتبرونى.. رجعية.. شرقية.. متخلفة.. والى مات مات.. والحياة
تستمر.

شرحت لفيكى أننا ورثنا فكرة إقامة الأربعين منذ عهد الفراعنة
لأننا شعب نعشق فكرة الولاء ونحترم الذكرى العطرة، قالت «فيكى»:
- كفى رومانسية فلتكونى عملية.. واقعية.. متحضرة Practical
هل يمكن خلع إنسان عزيز فى لحظات من القلب والوجدان؟

هل يمكن اقتلاع مشاعر الحب والوفاء والإخلاص اقتلاعا جذريا
فى أربع وعشرين ساعة؟

هل يجب أن ننسى المسافر والمهاجر والميت ونقول الحياة تستمر؟
أنا لا أستطيع أن أتخلى عن ذكريات الطفولة الجميلة وضحكاتى
المجلجلة وأنا فى الثامنة من العمر.. ولهوى البرىء مع أخى الغالى الذى
مات فى زهرة شبابه والتهمه مرض السرطان الرهيب.. أنا ما زلت
أتذكره فى كل لحظة فرح وأناجية وأناديه وأفتقده فى لحظات الشدة
وأدعوه بالرحمة.. أنا لن أنسى نكات أبى.. وأوامر أمى.. ودموعهما
فى فرحى ومرضى لمجرد أنهم رحلوا عن الحياة.. أنا يا فيكى لا أعيش
فى الماضى كما تقولين.. لكنى أحتفظ فى خزانة القلب بذكرى أحبائى..
أستمد منها القوة والسعادة.. أتعلم منها طعم الشوق والرحشة

أتعلم.. أول دروس الموت.. وهو الولاء لذكرى عزيز.

قالت لى فيكى:

- إنك تتمسكين بالماضى.. والماضى سيعرقل حركتك فى الحاضر
وخطواتك فى المستقبل.

ولم تكتف باعترافى شرقية متخلفة.. بل قالت إننى فى حالة الـ
«شرنك» Shrink.

«شرنك»؟

هذه كلمة باللغة الدارجة الأمريكية، دخلت قاموس الحياة اليومية
وأصبحت متداولة، لو بحثت عنها فى القاموس لوجدت أنها تعنى
«انكمش - تضاعل - صغر» لكنها أصبحت تعنى بقدرة قادر.. الطبيب
النفسى..

ماهى العلاقة اللفظية، والتحليل الاجتماعى لتحويل فعل «انكمش»،
إلى دكتور أمراض عصبية ونفسية؟!

وأنا لأدرى من الذى ينكمش، الدكتور.. أم المريض؟ ربما قصدوا
أن همومك ومصائبك تنكمش وتتضاعل على يد الدكتور «شرنك»
و«شرنك» من أهم الظواهر الأمريكية المعاصرة.

والذهاب إلى الـ «شرنك» رحلة مقدسة فى حياة المواطن الأمريكى..
«الشرنك».. هو الحل والبديل للأب والأسرة. «الشرنك» هو الحل

الأوحد. للمشاكل العاطفية والزوجية والأبوية والأخوية والعملية على جميع الأصعدة. والمواطن الأمريكى قد لا يتمكن من تدبير قوت يومه أو قسط امتلاك بيته، ومع ذلك يقول لك فى عنجهية:

عندى ثلاثة مواعيد أسبوعية مع طبيبى النفسى الـ «شرنك». والساعة بتسعين دولارا، دولار ينطح دولارا، كل ما عليه أن يسأل والمريض يحكى ويفضض بكل أسرارهِ وأسرار أهله واللى خلفوه وأسرار الجيران كمان!

وعادة ما يضع «الشرنك» منبها وبعد مرور ستين دقيقة بالتمام والكمال يقاطع المريض فى أى جملة مفيدة قائلاً «الجلسة انتهت.. إلى اللقاء.. مع تسعين دولاراً أخرى».

«الشرنك» فى العادة.. صاحب ملامح حجرية ونظرات فولاذية وهو فى حالة اهتمام منفعل وتأمل دائم لكلمات المريض وكأنه يدلى له بسر القنبلة النووية. وهو دكتور فى أدب طرد المرضى بالذوق أو بالبرود.. أو بالغرور ولا بد له أن يذل المريض ما دام فى حاجة إليه كانت «فيكى» تزور الطبيب النفسى بانتظام.. لكن ليس من أجل حل مشاكلها النفسية والعاطفية.. بل من أجل كيفية التعامل مع «ممكن» الذى أصابته هو بدوره نوبة اكتئاب نفسى بعد إجراء العملية الجراحية.

واكتشفت فيما بعد...

أن هناك نسبة متزايدة في عدد الأطباء النفسيين «الشرنكات» الذين قد يسيئون استخدام المهنة، وقد يقيمون علاقات مشينة مع المرضى الذين يمرون بلحظات ضعف ووهن نفسى، يعنى «جبتك يا عبد المعين تعيننى...».

تعجبت...!! هذه هى بلاد الحرية والديمقراطية والاباحية، هذا هو الغرب المتحضر الذى قرأت عنه فى الكتب. جريمة.. واغتصاب وقتل.. وانتحار.. وشذوذ.. وحتى «الشرنك» «جه يكحلها عماها» يا فيكى يا أختى.

قالت فيكى:

- لقد تحولنا إلى أمة من المشاهدين المتفجرين السلبيين نشاهد الجريمة بأنواعها ليل نهار على الشاشة.. فى السينما.. وفى التلفزيون.. هناك الجريمة العنيفة المرعبة، وهناك جريمة من نوع آخر وهى جريمة الدم البارد بدون سبب وبدون دافع وبدون مرض نفسى.. أصبح هناك شىء اسمه القنص البشرى حيث يرتكب المجرم الجريمة باصطياد أى ضحية بطريقة عشوائية دون سبب، الفيلم الناجح اليوم هو فيلم المغامرات المثير.. فيلم الأكشن.. ونجاح الفيلم يقاس بعدد القتلى والجثث المتفجرة.. والفيلم الذى يحقق نجاحا منقطع النظير هو

الذى يعرض ألف طريقة وطريقة للقتل، البطل الهمام هو الذى يقتل
بالمسدس والبندقية والرشاشات والقنابل ويستخدم أساليب الحرق
والشنق والخنق والامواس والخناجر والمطاوى والحبال والأسلاك
وقد يلقى بضحيته من طائرة أو باخرة أو من الدور التاسع
والتسعين.. والعبرى هو الذى يخترع وسيلة حقيرة خطيرة للقتل..
وبدلاً من أن يسأل المشاهد قبل دخول الفيلم من الذى يقوم بدور
البطولة وما هو اسم البطل والبطلة يسأل:

هو فيه كام قتيل فى الفيلم؟!

ضحكت على هذا الزمان والمكان.. فى أيام هوليوود الذهبية
الرومانسية، كانوا يحصون عدد القبلات فى الافلام ونحن فى مصر
نحصى عدد الضحكات. حتى الركب وهم يحصون عدد الجثث
والأشلاء البشرية!

أمة المشاهدين اكتسبت حصانة، مناعة نفسية، تحيدت.. أصبح
المشاهد محايداً أمام مشاهد العنف والجنس والاغتصاب فهو لا
يمارس الفعل لكنه يتابعه بسلبية وتنبلة.. هو يتلقى فى صمت ومن ثم
يشعر بالإنجاز الزائف دون أن يحرك شعرة فى رأسه.

وترسخ فى العقل الباطن للمتفرج أنه لو أطلق الرصاص على
زوجته لأنها لم تعد له العشاء فإن الرصاص سيخترق رأسها ثم

يمسك بدماعها الذى ينزف دماً فيحطم به زجاج الشرفة ثم يلقيها من الدور الخمسين وفى نهاية الأمر ستنجو بقدرة سينمائية خادعة و«تقوم مثل الرهوان» تحضر له العشاء.

فقدت مشاعر الخوف والفاظ البشاعة والروحشية معناها ومحتواها وتحولت إلى ممارسات سلبية يومية يمارسها المتفرج.. أصبحت أمة المشاهدين تبحث عن الإثارة المرضية وليست الإثارة الممتعة. وفى النهاية يرتع فى المجتمع سفاحون من صنف السفاح الذى اغتصب وقتل عشرين امرأة وبقر بطونهن، والسفاح الذى كان يسجن ضحاياه من الرجال والأطفال ويسلخ الجثث ويأكل لحم الضحايا.. يعنى أكلة لحوم البشر مازالوا بخير لا يعيشون فى غابات أفريقيا والأمازون بل فى العواصم المتحضرة.. وسفاح ثالث خطف ثلاثاً وعشرين طفلة واغتصب براءتهن.. وذبحهن واحدة بعد الأخرى.

والعجيب أن حكايات السفاحين تتحول إلى مادة لذيذة جذابة لأفلام مثيرة.. والمصيبة أن هذه الأفلام تحصل على جوائز الأوسكار مثل فيلم «صمت الحملان» عن سفاح أكل لحوم البشر الذى حقق إيرادات قياسية.. ومن ثم بل ومن الحتمى أن تذهب الأمة بحالها بأكملها إلى «الشرنك» ويزدهر ويتربع دور وسلطة الطبيب النفسى.

فالشرنك هو المرفأ من فراغ الوحدة والوحشية، وملل الرفاهية
وقسوة الواقع، وإيقاع جرى الوحوش، والمنافسة اللاهثة، والثقافة
التليفزيونية القشرية السطحية، والأسرة الممزقة المفتتة المشتتة في
أنحاء القارة الأمريكية.

الحلم الأمريكي..

وأمریکا قارة بالفعل وليست مجرد بلد، فالساحل الشرقى يبعد عن الساحل الغربى مايزيد على أربعة آلاف كيلو والطائرة تقطع المسافة بين واشنطن وسان فرانسيسكو فى ثمانى ساعات والمواطن الأمريكى قد يعيش على الساحل الشرقى فى درجة حرارة تحت الصفر حيث تكسو الثلوج الجبال وفى نفس اليوم يكون المواطن على الساحل الغربى فى لوس أنجلوس يجلس على الشاطئ يستمتع بأشعة الشمس الدافئة، وفى نفس اليوم تكون درجة الحرارة فى صحراء أريزونا ونيفادا تشوى الجلود، وفى غابات مونتانا الباردة فى الشمال يرتدى الناس معاطف الفراء السمكية، الامتداد الجغرافى للقارة الأمريكية شرقا، وغربا، شمالا، وجنوبا، مع الاختلاف فى التركيبية

البيئية من جبال إلى وديان إلى صحراء، إلى غابات، إلى شواطئ، انعكس على الشخصية الأمريكية تناقضات سلوكية كبيرة، ومن الصعب أن نصف سمات الشخصية الأمريكية، فالساحل الشرقى هو أرض الإنسان المحافظ والمثقف والفنان، وتختلف شخصية مواطن يعيش في نيويورك في الشمال الشرقى حيث إيقاع الحياة اللاهث والضجيج والزحام وجرى الوحوش والجريمة والفنون المزدهرة والحرية الشديدة، يختلف هذا المواطن عن مواطن يعيش في «بالم بيتش» في جنوب الساحل الشرقى حيث الحياة الممتعة الرحبة وإيقاع الحياة الهادئ، ويختلف الاثنان عن مواطن من الساحل الغربى من لوس انجلوس أو سان فرانسيسكو حيث التلقائية والانطلاق والاباحية وهوليوود والطموح والشذوذ. بالتأكيد هناك ارتباط بين المؤثرات الجغرافية على شخصية كل منهم. هذا إلى جانب الاختلاف الكبير في الخلفيات الحضارية والثقافية والدينية للمواطن الأمريكى.

فالمواطن الذى هو من أصل أوروبى يختلف عن المواطن الذى هو من أصل صينى أو مكسيكى أو لاتينى «من أمريكا اللاتينية». كما أن المواطن الأمريكى قد يعيش سبعين عاما من عمره دون أن ينتقل من «تكساس» إلى «سياتل» لأن المسافة خمس ساعات بالطائرة وعدة أيام بالسيارة ومازلت أتذكر نظرات الاحترام والتبجيل من أستاذ

مادة الدراما الأمريكى فى جامعة «لوفيل» فى ولاية «كنتاكى» لأننى قمت بزيارة «نيويورك» وشاهدت مسارح «برودواى» وأنا القادمة من بلاد الفراعنة وهو الأمريكى الذى تعدى الخمسين من عمره ولم تطأ قدماه مدينة «نيويورك» ومن ثم تجد كثيرا من الأمريكين لا يعرفون شيئا عن العالم الخارجى ويتصورون أن الحياة هى أمريكا وأن أمريكا هى الحياة.. وإذا سألت الواحد منهم ماهى عاصمة سوريا؟ أو فنلندا؟ قد لا يعرف أصلا أن هناك بلدا تحمل هذا الاسم. والمثل الشعبى الأمريكى الذى يعبر عن هذا المنطق أيا تعبير هو المثل القائل:

Far From my bed

وهذا حين يريد التعبير أن القضية لاتهمه فيقول إنها بعيدة عن فراشه، ولاشك أن الذين قالوا أن الجغرافيا هى القضبان التى يسير عليها التاريخ والسياسة كانوا على صواب تام، فأمریکا على يمينها المحيط الأطلسى الذى كانت تعبره السفن فى عشرة أيام وعلى يسارها المحيط الهادى الذى كانت تعبره السفن فى أسبوعين ومن الطبيعى أن تصبح فكرة البلد والوطن والقارة كلها أفكار تحمل مضمونا مختلفا فى أمريكا عنها فى أى مكان آخر، فالوطن الأمريكى فى خيال الأمريكى ليس هو الوطن كما يفهمه المصرى أو الهندى، وقد يعيش المواطن

الأمريكي ويموت دون أن يرى إلا خمس ولايات أمريكية ولا يعرف شيئاً عن الخمس وأربعين ولاية الباقية. ومن الطبيعي أن تفرز هذه الجغرافيا المتباينة أمزجة مختلفة وسلوكيات متناقضة فهناك الشخصية الباردة في جبال «فرمونت» في الشمال الشرقي وهناك الشخصية المشتعلة في جنوب أريزونا - في الجنوب الغربي ، وهناك مجانين كاليفورنيا بالطبع.

في المناطق الزراعية مثل ولاية «كنتاكي» و«انديانا» مازالت الأسرة متماسكة تحافظ على التقاليد العائلية، أما في المدن الكبرى المزدهمة مثل نيويورك، ولوس أنجلوس، وهيوستون فنجد أن الأسرة مفتتة إلى حد كبير وتبرز السلوكيات الفردية الأنانية ويعيش الأطباء النفسانيون في رفاهية ورغد من العيش.

ويظل الإنسان الأمريكي يحلم «الحلم الأمريكي»، والحلم الأمريكي The American dream من العبارات التاريخية الماثورة والأثيرة بالنسبة لكل مواطن أمريكي، فالمهاجر يأتي إلى أمريكا وفي جعبته الحلم الأمريكي، ماهو الحلم الأمريكي؟.. هو الرفاهية والثروة والحرية والديمقراطية والنجاح والطموح والصعود وهو كل قصة نجاح. فالحلم الأمريكي هو أن تأتي من بلاد الفقر والقهر والجهل خالي الوفاض وتكد وتتعب وتعمل وتصبح مليونيراً من عرق جبينك

وليس عن طريق الوراثة أو الثروة المفاجئة. الحلم الأمريكي هو أن
تصبح «سيناتور» في الكونجرس أو رئيس الولايات المتحدة عن طريق
الانتخابات الحرة وليس عن طريق الوساطة أو الرشوة.
الحلم الأمريكي نظرية فلسفية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

استام الآن.. وادفع غداً !

جتنى حالة نفسية.. فقد تحولت إلى مخلوق استهلاكي ولم يعد مرتبى يغطى التزاماتى المادية ما بين الرغبة فى الشراء لإرضاء نزعاتى الاستهلاكية المجنونة وضعفى أمام حملات التخفيضات الضخمة على مدار العام مما يجعل المستهلك يشعر بأنه سيفوته نصف عمره لو لم يحصل على تلك السلعة اللقطة ومن ثم وقعت فى فخ الشراء لمجرد الشراء وليس لحاجتى الحقيقية لهذه الأشياء. أثقلتني الديون خاصة بعد أن حصلت على تلك البطاقة الشريرة؛ بطاقة الائتمان البلاستيكية التى تشتري بها ما تريد ثم تدفع بالتقسيط آخر الشهر وهذه النقود البلاستيكية لاتجعل المشتري يشعر بحجم المشتريات المتراكم وتسهل السرغبة الجامحة فى الشراء والتى لايحكمها عقل

ولامنطق، هذا إلى جانب مرتب «فيكى» ومصاريف علاج «ممکن» عند الطبيب النفسى، أصرت «فيكى» إزاء حالة الاكتئاب الفظيعة التى أعانى منها، أننى يجب أن أذهب إلى «الشرنك». لكن إمكانياتى لاتسمح بدفع التسعين ملطوش أخضر. سألت «فيكى»: وما العمل يا فيكى أنا تعبانة نفسيا؟! اقترحت فيكى أن أكتب خطابا أو أتصل تليفونيا بالشرنك المصرى بتاعى.. لأن أى شرنك أمريكى لن يفهم الأبعاد الحضارية، والعقد النفسية، ذات الخلفية الشرقية المحافظة، «الكلاكيى»، أخبرت فيكى أننا نعيش حياتنا بدون «شرنكات» ونعتبر أن الذهاب للطبيب النفسى هو أول خطوة للسرايا الصفراء، وأن العيادة النفسية عندنا تعني أن المواطن «مناخوليا» ياختى يا فيكى. رددت فيكى القول الأمريكى المأثور «ياربى.. ياربى.. التعب النفسى لاعلاقة له بالجنون أيتها الشرقية المتخلفة».

فى المساء عرض التليفزيون برنامجا عن الاكتئاب النفسى قالوا فيه إن الاكتئاب مرض عضوى لابد من علاجه بالعقاقير والأدوية، وأنه يؤدى إلى الانتحار بنسبة ٦٪، يعنى ينافس أمراض القلب والسرطان وضغط الدم، اللهم احفظنا.

قلت لفيكى:

- ياربى.. ياربى.. أنا لست مكتئبة، بل تعبانة، مرهقة أشعر بوحدة

قائلة.

قالت:

— أنت في حالة Home Sickness إنها حالة معروفة. في الغربية يشعر الإنسان بالوحشة والوحدة ويفتقد أهله وبلده وناسه.

بكيت نعم، أفنقدهم جميعا بشدة.

قالت فيكى متأثرة:

— ياربى.. ياربى.. وماذا تفعلون في الحياة بدون «شرنك»؟.

قلت لفيكى:

— نقول: يارب بصدق وحين نتعب ونشعر بوطأة وقسوة أزمة طاحنة نزور الأهل، نرتقى في حضن الأم، نلجأ لحنان الأخت، ونحتفى برجولة الأخ. نتمرغ في دفء صداقة حميمة، ونبكي ونفضفض عن أنفسنا في بيت الجيران، وتشكو العمة لبنت الخالة في التليفون. عندنا مؤسسة اجتماعية اسمها الارتباط الأسرى، وشركة مساهمة نستثمر فيها المشاعر الإنسانية اسمها الصداقة، وهؤلاء بالـف «شرنك» من بتوعك، لأنها مشاعر بدون مقابل، وعواطف غير مدفوعة الأجر.

نحن نحتفل بالأفراح والأحزان جماعة، ونصرف مافى الجيب، ونقترض من بعضنا البعض وليس من البنك، في الوقت الذى تعيش

فيه الغالبية العظمى من الشعب الأمريكى على دفتر الشيكات، والحساب فى البنك، حتى لو كان عامل نظافة، فلا بد له من تاريخ بنكى، وهذا أهم من تاريخ الميلاد، وكلما كان رصيدك من الديون ومن الأقساط أكبر، كلما زادت مصداقيتك، وكلما كانت فرصتك أكيدة فى الاقتراض، أما إذا كنت من أصحاب الصفحة البيضاء الخالية من القروض يصبح من الصعب الثقة بك، ومنحك قرض بسهولة، ومن ثم يحمل الناس من أجل الضمان والأمان والتاريخ البنكى دفتر الشيكات فى كل مكان، ودفتر الشيكات يحميك من مطامع اللصوص والنشالين الذين يبحثون عن العملة الدولارية، ومن ثم فإن دفتر الشيكات يضمن لك رصيداً من الديون الدائمة، ومن الخوف والقلق من احتمال عدم القدرة على تسديد هذه الديون. الغالبية العظمى من الشعب المصرى يتعاملون بالجنه فى شوارع القاهرة، وثلاثة أرباع موظفى مصر يشترون حوائجهم ويواجهون مسئوليتهم المادية الجسيمة بـ«الجمعيه».. والجمعيه يا أختى يافيكى فى المكاتب والوزارات، والعمارات، والأحياء الشعبية، وهى بنك شعبى مصغر قائم على رصيد الثقة، ورأس مال التكافل والود الاجتماعى، والتآخى الإنسانى.

أعجبت فيكى فكرة الجمعيه خاصة أنها بدون فوائد.. يعنى قرضاً

حسنا في بلاد اخترعت القروض والفوائد.

والنظام الرأسمالى، هو الذى أفرز المواطن الاستهلاكي، وجعله يعيش ويموت فى دوامة الاستهلاك والشراء، والطبقة الوسطى والدنيا وحتى الفقراء ينغمسون فى شراء البيوت، والسيارات، والثلاجات والميكروويف والفيديو والكومباكت ديسك عن طريق أخطبوط الاقتراض وعنكبوت «استلم الآن وادفع غدا».

غير أن هذا النظام الذى ابتدعته الرأسمالية الأمريكية، وسع دائرة المشتري والمستهلك.

ومن ثم فإن هذا الإطار الاقتصادى، يجعل الحركة المالية فى فوران ودورة دؤوبة لاتنتهى، والسوق الأمريكية باتساع المحيط تمثل تطبيقا عمليا واسعا للاقتصاد الحر القائم على تشجيع التنافس الاقتصادى، وتفجير طاقة المنافسة، وتحسيس كل عوامل العرض والطلب فى معادلة تشبه جنون سباق السيارات، وهو نظام يفجر الإبداع، ويزيد من إمكانيات التطور، ويجعل الحياة كخلية النحل، ومن ثم يرفع من قيمة العمل إلى السماء السبعة، وإن كان لهذا النظام مزايا كثيرة، إلا أن له عيوباً منها: أن المنافسة الحارة المزدهرة هى التى تقتل بعض النفوس، ويتفشى الإحباط والانتحار، لأن العجلة السريعة تدهس، وتهرس الفاشلين، ومن ثم فإن هذا مجتمع البقاء

للأصلح.

ظلت «فيكى» تفكر فى موضوع «الجمعية» المصرية، وسألتنى فجأة:

- فلنفترض أن واحدا من المشتركين فى الجمعية مات. أين التأمين؟..
من يسدد القسط؟
قلت لها:

- يافيكى عندنا نظرية فلسفية رائعة فى كلمتين نردها فى مثل هذه الأحوال، عليه العوض ومنه العوض، وهذه النظرية الشعبية تتطلب قدرة إيمانية عالية، وتسليم بالقضاء والقدر، ولاتعرف نظريات التأمين.

أصبحت فيكى تؤدى فى حياتى دورا له أبعاد، فإلى جانب كونها كتيبة آلة كاتبة ملاكى فهمى تقوم بدور «الشرنك» «شكك» أى بدون مقابل، ودور الباحثة الاجتماعية فى الحياة الأمريكية والمصرية من فرط المناقشات المتبادلة بيننا، هذا إلى جانب صداقتها، وإخلاصها، وانبهارها بمحسوبتكم.. نفرتيتى المصرية.

الأستاذ يضع أصمى شفاه!

«رب صدفة خير من ألف ميعاد».

فعلى الرغم من أنى لم أذهب إلى «الشرتك»، إلا أنه أتى إلى.

كنت أقوم بالإعداد لإخراج مسرحية موسيقية غنائية على مسرح جامعة «جورج واشنطن»، وكان على إجراء اختبار لاختيار الممثلين كما جرى العرف فى المسرح الأمريكى.

يستدعى المخرج الممثل لقراءة الدور، وقاعدة الاختبار والاختيار هذه تنطبق على الجميع حتى لو كان هذا النجم هو «ربورت ريدفورد»، أو كانت النجمة «جين فوندا».

هناك أصول للهرم الدرامى، المخرج يخرج ويتخذ القرارات،

والممثل يمثل ويطيع الأوامر. لاممثلة تطلب تغيير السيناريو لأنها لا تريد أن تقوم بدور الأم لأنها مازالت «ننوسة عين أمها صغفونة لاتصلح لدور الأم». ولاممثل يشخط وينظر ويقول: أنا النجم الأوحد. وهذا لايعنى أن هوليوود لاتزخر بالفساد وأن العلاقات والمصالح والصدقات تتحكم أحيانا فى صناعة السينما. لكن هناك الحد الأدنى من الجدية واحترام العمل الفنى. هناك الخط الأحمر الذى لايسمح بإعطاء البطولة لمثلة درجة ثانية لكونها صديقة المنتج، فى أمريكا بزنس إن بزنس. وهناك وظيفة خاصة فى السينما الأمريكية ومهمة للغاية اسمها Casting.

وهذا شخص عمله الأساسى هو العثور على الممثل الذى يصلح للدور، وعليه أن يعرض الأسماء على المخرج ثم يقوم المخرج بعمل الاختبار والاختيار.

ماعلينا، كنت أقوم بعمل Audition، أو عملية انتقاء للمشاركين فى المسرحية الاستعراضية «جاك بريلى بخير وبصحة جيدة ومازال يعيش فى باريس».

نعم.. هذا هو عنوان المسرحية التى تعتبر من الكباريه السياسى. كان المتقدمون من طلبة قسم التمثيل والدراسات العليا والهواة، والهواة هم عشاق فن التمثيل دون مقابل، كل أمنياتهم فى الحياة هى

الاشتراك فى عمل فنى مع بصيص من الأمل أن يصبح يوما ما بضربة
ما، نجما معروفا.

وكننت أتصور أن الهواة هم فى العادة «ناس فاضية»، «ناس فايفة
ورايقة»، يعانون من الملل والزهمق.

اكتشفت فيما بعد

أن هواة التمثيل من المحامين والمحاسبين والأطباء، وحذروا
فزروا من أى مهنة أيضا؟ من الشرنكات طبعا.

المفاجأة أن الذى وقع عليه الاختيار لدور البطولة كان شابا هاويا
وسيمما مهذبا، صاحب صوت رخيم، وأداء رائع، تفوق به على الممثلين
المحترفين، وحذروا فزروا ماذا يعمل؟.

طبعا «شرنك».. أو طبيبا نفسيا.

قلت لفيكى: الله عندنا واسطة.. سوف يتم علاجنا مجانا!

وهذه هى النظرية الشرقية فى استغلال المعارف والأصدقاء.

أكدت لى «فيكى» أنه لا يوجد شىء مجانا فى أمريكا، ماعلينا.. بدأنا
البروفات.

ومن العجيب أننى لاحظت تقانياً شديداً فى العمل، ودقة غريبة فى
مواعيد الحضور، والتزاما كبيرا من جانب الهواة الذين يعملون دون
مقابل أكثر من طلبية قسم التمثيل الذين تعتبر هذه المسرحية جزءاً من

دراستهم، يحصلون فيها على درجات.

أما الذى كان يتأخر بالطبع فهو «سيادتى»، كانت مساعدتى تعد لى جدول العمل بالدقيقة والثانية. يعنى نبدأ فى الخامسة والثلاثين دقيقة، ثم سبع دقائق تمرينات للاسترخاء، وفى الخامسة وسبع وثلاثين دقيقة يبدأ المشهد رقم ثمانية لمدة خمس وعشرين دقيقة، وهكذا.

تأديت، وتعلمت الدقة، واحترام قيمة الوقت.

أما حكاية الاسترخاء فكانت بالنسبة لى مسألة توتر وإحراج . وقصتى مع تمرينات الاسترخاء بدأت فى بداية العام الدراسى فى أول محاضرة.

حيث تبدأ التمرينات العملية التمهيدية فى أى جلسة درامية تمرينات الاسترخاء العقلى والبدنى. وكانت أستاذة مادة التمثيل تطلب أن نستلقى على الأرض، ونغمض أعيننا، وننظم النفس.. شهيق.. زفير.. شهيق.. زفير. ثم يقوم كل طالب أو طالبة بعمل تدليك أو مساج لزميله أو زميلته المجاورة «هو وحظه».

وكننت قد وافقت على مضض على الالتحاق بمادة التمثيل لأن رئيسة القسم «ليزلى» أصررت أننى لا يمكن أن أدرس مهنة الإخراج دون أن أدرس مهنة التمثيل، وأقوم بممارسة جميع العناصر الفنية

المسرحية، من تمثيل، وإضاءة، وديكور، وملابس، يعنى لابد أن يدرس المخرج فن التمثيل ولكن ليس من الضروري أن يحترف مهنة التمثيل.

وقد قبلت دراسة التمثيل «غصب عني» لكني لم أكن أعرف بحكاية التدليك المتبادل. قلت للأستاذة:

– اسمعى يا «ليز» صحيح أنا درست فن الباليه في أكاديمية الفنون لكن كان عندنا أساتذة متخصصون في فن «المساج»، دارسين لمادة التشريح البشرى، ويعرفون أصول المهنة. لكن لن أسمع أبداً.. أبداً.. لجنس مخلوق أن «يفحص» في رقبتى أو في ظهرى تحت شعار «الاسترخاء العضلى»..

تمثيل نعم.. لمس لا!

– هذه بلد الديمقراطية، وأنها تحترم خلفيتى الحضارية!!

لكن الأعجب من ذلك، أن دروس التمثيل لم تقتصر على التدليك المرفوض، بل أصابتنى حالة من الذهول حين اكتشفت أنه لاهياء فى دروس الدراما، وأن مشاهد القبلات المحمومة من ضمن المقرر! قلت للأستاذة:

– اسمعى يا «ليز»، أنا لا أريد لامتثيل، ولا إخراج، أنا بنت شرقية محافظة لايعجبنى الحال المائل، وتعليم المصداقية الفنية عن طريق

التقبيل لا يدخل عقلى. وفن التمثيل كما درسناه معك أيضا، هو «لعبة الإيهام بالواقع» وليس تصوير الواقع حرفيا.

وأنا لا يهمنى إذا اعتبرتمونى رجعية ومتخلفة. ضحكت «ليز» وأكدت لى أنها تحترم خلفيتى الحضارية.. واكتفيت بالشهيق والزفير.

ما علينا، حصل على دور البطولة الطبيب النفسى الشاب الغاوى الهاوى. بدأنا البروفات والبنات فى حالة وله من شدة الإعجاب بالبطل الوسيم، وطبعاً كل واحدة تلجأ له بمشكلة نفسية معقدة فى محاولة يائسة لجذب انتباهه.

فازت فى هذا السباق المحموم على قلب الدكتور «ديفيد» البطلة «باتريشيا». وهى فى الحقيقة ظاهرة تحدث للكثير من الممثلين والممثلات حين يندمجان فى الدور، ويصبح التمثيل حقيقة.

كانت «باتريشيا» تحب «ديفيد» على خشبة المسرح وفى الكواليس. عاشت «باتريشيا» قصة الحب المتأججة، نظرات، وابتسامات، وحكايات. و«بات» «اسم الدلع» تحلم تعش الزوجية العامر «الأستاذ شرنك» من هؤلاء الذين يتقاضون تسعين دولارا فى الساعة وهى تتقاضى هذا الأجر عن أسبوع من العمل جرسونة وهى تعشق التمثيل الذى هو مهنة الفنانين الفقراء إلا إذا ضرب معك الحظ ضربته

وأصبحت نجما في هوليوود.

والدكتور «ديفيد» عريس لقطة.. قيمة.. ومركز.

هناك ميثاق عام غربى ينص على الاحتفال بقيمة الحب.

الناس تحب أن ترى وتسمع وتشم رائحة الحب، ولا يمكن أن يتدخل أى إنسان فى حياة إنسان آخر تحت شعار عيب أو حرام أو «روح كلم بابا».. لأن الحب قرار شخصى مستقل يقدم عليه طرفان بكامل إرادتهما وعليهما تحمل العواقب.

والقبلة على الملأ وعلى قارعة الطريق حلال، والحرام عندهم هو أن تحلق أو تعتدى على خصوصية العشاق، ويمكن «أن تروح فى حديد» عقابا لك لأن القانون لا يجرم القبلة لكنه يجرم المتطفلين.

وتطبيقا لميثاق «يحيى الحب». كانت الفرقة كلها تحتفل بقصة «ديفيد» و«باتريشيا» ولكن لا توجد جنة من غير نار، فجأة بدأت تعيش «بات» أياماً سوداء تعاني فيها من ابتعاد وهجر وغضب «ديفيد» المفاجئ.. نوبات غريبة عجيبة كانت تصيب سعادة الدكتور النفسى «الشرنك» الذى يعالج الناس، يعنى الدكتور كان فى حاجة إلى دكتور. ذات يوم جاءنى «ديفيد» محملاً بالهموم والأحزان، يشكو ويتوجع من عذاب الحب وسنيته.

أكدت له بشهامة وجدعنة مصرية أننى سأقوم من منطلق

الصداقة بالتدخل مع الطرف الآخر، وقلت له:

— عندنا في البلد نقول «ناقصات عقل ودين» ياديفيد، وأنا أدرك أن التعنت والعند والتمسك بالرأى قد يصيب أى علاقة عاطفية بهزة عنيفة. بكى الدكتور «ديفيد» وأكد لى أنه لا عند ولا يحزنون. بل المسألة مسألة غيرة وحيرة وشك ونار ومرار!

هنا انبريت مدافعة عن زميلتى وصديقتى وبطلتى:

— إلا الشك يا أستاذ «ديفيد» أنا لن أسمح لك.. قل إنها الغيرة العمياء، وأنا واثقة من أخلاق صديقتى، «بات» فل الفل، ومثل الجنيه الذهب (لا يعرف ماهو الجنيه الذهب ومن ثم لم يفهم) «بات» فل الفل ومثل الدولار اللى بشوكة الذى خرج لتوه من خزانة البنك — فهمت — (لم يفهم!)

أقصد أنه لم يمسها أو يمس مشاعرها النقية سواك يا دكتور. هذه بنت نادرة من طراز «ممنوع اللمس».

جاءت معى من الأرياف، هذه جوهرية فى هذا البلد الذى انفلت فيه عيار البنات، على كل الأحوال سوف أتكلم معها. لطمتنى المفاجأة، أصابتنى بالشلل.

انعقد لسانى مائة عقدة وشنيطة حين أعرب لى الدكتور «ديفيد» فى رغبته فى أن أقوم بهذه المهمة الإنسانية ألا وهى (توفيق رأسين فى

الحلال) إلا أنه همس لى بتعديل بسيط، ألا وهو أننى يجب أن أتكلم معه وليس معها.. نعم.. معه!!

– مع من يادكتور؟

قال وهو يسبل عينيه، ويبربش رموشه فى رومانسية حاملة:

– مع جون.

هكذا بكل بساطة..

– من مين يا أخويا.

– جون .. المشرف على إعداد الملابس.

– ثانى.. ورايا ورايا، أنا ماصدقت نسيت موضوع هامبرجر

«أرنست» جرس الإيدز دق فى نافوخى.

بعد أن أفقت من الصدمة الأولى نظرت إليه فى ذهول. الدكتور رجل

ملء هدومه. مستحيل، شىء لا يصدقه عقل!

والبنت المسكينة المخدوعة فى الرجل «عفوا .. غلطة مطبعية،

الدكتور «الشرتك» غارق لشوشته

واكتشفت فيما بعد

أن المشرف على قسم الملابس، فنان غاوى وهاوى يرتدى ملابس

النساء، وهذه الفئة من الشواذ يطلقون عليهم الـTransvas tite.

كل شحط منهم يرتدى فستانا نساثيا ويهرول فى الأسواق فى

أقسام الملابس النسائية يتسوق البلوزات والجونلات وكنت كلما شاهدت بالصدفة «ترنس» من هؤلاء تصيبني حالة غثيان، خاصة لو كان يضع الباروكة ويلبس فستانا قصيرا، وتبرز عضلات ساقه المثيرة للقيء وقدمه في حجم البلاطة يتمخطر بالكعب العالى.

واكتشفت فيما بعد

أن المشرف على قسم الملابس لم يخرج من الخزانة بعد لأنه لم يعلن على الملأ كل هذه الأسرار الرهيبة، وعلمت أنه يعمل في المساء في حانة Drag queen، وهى حانة يقوم فيها هؤلاء الشواذ بأداء استعراضات مسرحية غنائية نسائية يقلدون فيها «مارلين مونرو» و«جوزفين بيكر» و«مارلين ديتريش»، والمتفرجون من ذاك الصنف كذلك.

وكلمة «دراج كوين» تعنى ملكة الهلاهيل أو الأسمال البالية، الملكة التى ترتدى أسمالا ممزقة. وكلمة «دراج تريد»، منطقة وصناعة الملابس في نيويورك، ومن ثم اكتسبت كلمة «ملكة الهلاهيل» مفهوما أمريكيا خاصا يصف الرجال الذين يعيشون داخل ثياب النساء ويحترفون مهنة الرقص والغناء. ومن مصائب الدهر والزمان، أنه لايمكن أن تفرق في بعض الأحيان هل هذا رجل أم امرأة.

واكتشفت فيما بعد

أن الدكتور «ديفيد» قد وقع في غرام غادة الكاميليا «جون» من أول نظرة. لطمت الخدود ولجأت إلى «فيكى» مولولة!
- مصيبة يا «فيكى» مصيبة.. كيف لنا أن نخبر «باتريشيا». تلقت فيكى الخبر في برود وقلبت شفتيها في تفكير عميق وقالت:
- No Problem «مافيش مشكلة».

لم أتوقف عن وصلة الندب من مقام «صبا الحزين» أعدد فيها ميزات «باتريشيا» النقية البريئة.. العذراء. و«شخبط» في «فيكى»:
- هوكل حاجة في الحياة No Problem «نوبرولم»، تحلون المشاكل بكلمة «أرجوك حل لي هذه المشكلة المستعصية».
أكدت لي «فيكى» أن النقاء والبراءة والعذرية عيوب وليست ميزات..

فالبنات المجربة أفضل من البنات الخام التي تعتبر عبيطة أو متخلفة. وكان القسم بأكمله قد تقبل فكرة يحيا الشرق المحافظ واعتبروا أن تمسكى بتقاليدى وتاريخى وحضارتى تخلفا مقبولا ومحمودا، باعتبار أن هذه بلد الحرية والديمقراطية، واحترام الرأى الآخر، ومن ثم احترموا «خلفيتى الحضارية» لكن «باتريشيا» تعتبر عبيطة وسانجة ومتخلفة بالمنطق الأمريكى لأن خلفيتها الحضارية تحتم عليها خوض التجربة وهى فى الثالثة عشرة. لكن ليس هذا هو

بيت القصيد، كيف نخبر البنت المسكينة بالحقيقة المرة العلقم «وإن العريس طلع عريس الغفلة».

واستمر دكتور «ديفيد» في محاولات الصلح مع «غادة الكاميليا»، «جون»، وجاء يحمل لى الخبر فى سعادة غامرة ونبرات هادئة وأن مقصوف الرقبة «جون» قد قبل دعوة على العشاء.. وجدت الدكتور يامحترم يسألنى فى رومانسية:

— ماذا أطبخ له إن جاء يسألنى إن كنت أكرهه أو كنت أهواه؟
مارأيك ياعزيزتى فى اللحم البتلو بعش الغراب، وسلطة خضراء «زرعى» والخلو بودنج الشيكولاته.

قمت بتعديل بسيط، اقترحت عليه «سد الحنك بالسّم الهارى» فى الوقت ذاته جاء الأستاذ «جون» الذى كان يحضر للجامعة وهو يضع الروج والماسكرا يسألنى عن أنواع أحمر الخدود الموضّة، وترى ماذا يلبس الليلة. الفستان الأحمر أم البرتقالى؟! أستاذ أزياء حضرته، وله فلسفة فى ارتباط اللون بالحالة النفسية.. المتأجّجة..

كررت بينى وبين نفسى صرختى المكتومة «تعالى لى يا امه».
وتعلمت بدبيلوماسيتى السويسرية الصمت وكلمة «بدون تعليق».

مطلوب رجل أبيض.. خفيف الظل !

جلست «باتريشيا» تبكى وتشفق وقلوبنا تتمزق، نحاول تقديم فروض العزاء والمواساة، ونحاول التهوين من أمر «المقلب» الذى شربناه جميعا فى سعادة «الشرنك».

ودارت المناقشة حول الخطر الذى أصبح يهدد المرأة الأمريكية بالعنوسة، وهو انقراض عدد الرجال العزاب والمقبلين على الزواج. أربع شابات فى عمر الزهور جلسن يندبن حظهن التعس وصنف الرجل المنقرض، الرجل الشهم المسئول، العاطفى.

انضمت إلينا فى جلسة النكد «آن» وهى فتاة سمينة تشبه إلى حد كبير إطار سيارة نقل، ومن ثم فإن مشكلتها أكثر تعقيدا واحتمالات

تهديدها بالعنوسة عالية جدا.

أولا : هناك قحط في سوق الرجال.

ثانيا : إذا وجد الرجل فلماذا يعيرها النظر والستات أكثر من الهم على القلب.

اقترحت «أن» علينا على سبيل الفرغشة أن نلجأ إلى حل عبقري لمجابهة خطر العنوسة واستحالة العثور على رجل أو عريس عليه القيمة وكان هذا الحل هو: إعلانات الحب!

وأنا أعرف أن البنات يبحثن عن قصة عاطفية في البارات الشبابية التي يلتقى فيها الرجال والنساء، أو في محلات الديسكو، والمتقنون منهم يتعرفون على غايتهم المنشودة في المكتبات، لكن أن يحدث تعارف عن طريق إعلانات الحب فهذا شيء جديد لم أسمع به من قبل.

أثارت دهشتي سخرية البنات وكررن القول المأثور «متخلفة».

وكررت لهن شعارى الوطنى «يحيا الشرق المحافظ».

ولما زارت وزمجرت قالت «أن» : إنها ليست إعلانات حب حقا بل

هى إعلانات البحث عن صحبة.

لكن على مين؟ الغرض بالطبع هو البحث عن حبيب، عن الدفء والحنان والصحبة والعاطفة والجنس وربما الزواج. وهى إعلانات

غريبة الشكل تنشر في بعض الصحف والمجلات وفيها يتحول الإنسان إلى بضاعة، والشاطر الذى يعرف أفضل أسلوب لجذب المشتري.

أمريكا التى كتب عنها الكاتب المسرحى الكبير «أرثر ميللر» راثعته «وفاة بائع متجول»: هذه بلاد البيع والبائعين. هذه بلاد جعلت من مهنة البيع العمود الفقرى للحياة. كل شىء خاضع للعرض والطلب والبيع والشراء. وكل شىء يمكن أن يصبح بضاعة رائجة أو بضاعة كاسدة. حتى الإنسان أصبح يعرض نفسه للبيع على صفحات المجلات، يعرض عواطفه وأحلامه وأسراره الدقيقة على صفحات الجرائد:

ومن نماذج إعلانات الحب التى وجدناها الإعلان التالى:

أنا رجل أبيض قوقازى

أبلغ من العمر التاسعة والعشرين

طويل ، أنيق، وسيم، جميل

جمال مالوش مثال، كريم،

متقف، خفيف الظل وظلى

خفيف. أحب الموسيقى

والمرح والفنون وركوب الخيل

والبخوت والتزحلق على الجليد
والذهاب إلى أرقى المطاعم وأحب
الاستمتاع بالحياة.

أنا رومانسى، وعاطفى،
وشهم،
باختصار

كامل المعانى، ماحصلتش.
أعانى من الوحدة، وأريد
صديقة تقاسمنى ثروتى،
وسعادتى.

العنوان :

أرسل صورتك وعنوانك.

وعلى هذا المنوال، ورجال ونساء، يعلنون عن أنفسهم من شتى
الأجناس والأعمار، كل يحاول ترويح بضاعته «نفسه»

- يابنات .. هذا كلام لا يصدقهُ إنسان عاقل.. هل هذا معقول؟! لو
كان «المحروس» بكل هذه الصفات العظيمة والإمكانات الجبارة، لماذا
يبحث عن عروسة عن طريق إعلانات الجرائد، لابد أنه كذاب، نصاب،
ابن نصاب، لو كان لديه كل هذه الصفات والميزات لابد أن يخطف

خطفا.

ونقحت على صراحتى الشرقية المحافظة وقلت لهم.
هذا سوق رقيق صحفى، هذه تجارة رخيصة لأنبل العلاقات
الإنسانية.

قررت «أن» أكثرنا ياسا وإحباطا أن تنشر إعلانا عن نفسها تبيع
فيه أنوثتها وتتسول فيه أحلام الحب، وأوهام الغرام. طبعاً قامت
ببيع التزوير الشريف ولم تذكر وزنها ولا حجمها. وجاءت
الخطابات بالمثلثات.

صدقوا أو لا تصدقوا، بدأت «أن» تنتقى وتختار مثل «على بابا»
وهو يردد «ذهب.. ياقوت.. أصبحت «أن» تردد.. جورج.. مايكل..
مرجان.

بل وصل بها الحد إلى عرض فائض خطابات المعجبين على البنات
القائطات من العوانس التعسات.

ولم يقف بها جنون بيع نفسها على صفحات الجرائد، بل اتجهت
إلى شركات متخصصة في توفيق الرؤوس في الحلال أو في الحرام
«أستغفر الله العظيم»، وهذه الشركات تعمل بالكمبيوتر وليس من
الضرورى أن تذهب إلى الشركات شخصياً. كل المطلوب هو دفع
اشتراك في شبكة الكمبيوتر الأم، وبدلاً من الاتصال بالتليفون كانت

«أن» تقضى ساعات الليل أمام الكمبيوتر تناجي أصدقاء التكنولوجيا وتتعرف على أشكال واللوان الأمريكان ليس فقط في الولاية، بل في أنحاء القارة الأمريكية. إنهم جميعا يعانون من الوحدة القاتلة، والإحباط الشديد، والتفتت الأسرى. يبحثون في الفضاء عن حلم مجهول، حلم مستحيل، حلم الأمان والاطمئنان والدفء والحنان.

واشتركت «أن» في نادى للفديو، يسجلون فيه شريط يصور المرشح للعلاقة المنشودة يذكر فيه الاسم والسن والهوايات. والعنوان، ويعرض نفسه للبيع بالصوت والصورة. والصورة لم تساعد «أن» للأسف. لكنها عثرت على ضالتها عبر الكمبيوتر. لقد أحبها مجنون تعارف كومبيوترى دون أن يراها. أحب شخصيتها وذكاءها وإنسانيتها. وتيجى مع العمى طابات.

وفي النهاية ينتصر الحب حتى لو تلاقى الأرواح عبر كابل كومبيوتر.

الأستاذ "منهر" ابن "معجب" !

انقسمت صداقاتي: بين صديقتي الأمريكيات من الجامعة، وصديقتي المصريات والعربيات من الجالية. ونظرا لانشغالي في العمل والدراسة، لم أكن أقوم بواجبات الزيارات الاجتماعية بانتظام. وخاصة لو دخل الإنسان في دوامة «الجالية، الثالية فقط لاغير لن يشعر أنه انتقل من الدقى إلى سبرنج فيلد.

الغربة تجعل العلاقات وثيقة بين المغتربين.. خلّوا بالكم هناك مغتربون جاءوا لغرض ما، دراسة أو عمل، وهناك مهاجرون. وما بين درجة الإقامة الممنوحة للشخص والبطاقة الخضراء وجواز السفر يظل الإنسان يتأرجح بين الوطن الأم والوطن الجديد.

والغربة تفرض صداقات غريبة، أناس لا يجمع بينك وبينهم أى شىء سوى الغربة. أناس لم تكن فى العادة وأنت بين أهلِكَ وناسِكَ تعقد معهم صداقة، قد تكتشف أنهم أكثر إخلاصاً ومروءة وود وعطاء من أى صديق عرفته من قبل، وقد تكتشف أنه كان يوماً أسود يوم فرضت عليك الغربة صداقتهم.

والغربة امتحان لجوهر الإنسان، فى ظل المعاناة والكفاح والمنافسة والوحدة، إما أن تكتشف أن الناس ذهب عيار ٢٤ أو أنهم من صفيح والمونيوم ونحاس صدئ.

والعقل العربى فى المجتمع الغربى يمر بدورة غريبة، فهو إما يدخل دائرة الانبهار والإعجاب والذهول والتقدير لكل ما هو غربى، ويفقد المقارنات من صنف: حظنا هباب، وحضارتنا المتخلفة.. وهذه هى دورة الرفض للماضى وللجذور — وهؤلاء عادة يتزوجون «خوajaية» لتعويض عقد نقص كثيرة ترجع إلى أيام الاحتلال الأجنبى (طبعاً ليس كل من تزوج أجنبية تنطبق عليه هذه القاعدة).

والاستاذ «منبهر» ابن معجب، عادة ما يعوج لسانه ويرفض التحدث بالعربية (حتى لو كانت إنجليزيتة تعبانة). ولا يهتم بتعليم أولاده العربية «ها يعملوا بها إيه؟» لأنه قرر فى داخل نفسه أن يتبرأ من انتمائه العربى ويستبدله بالشخصية الأمريكية الجديدة. وكان

مايجعلنى أستشيط غضبا فى بعض الأحيان، أن الواحد من هؤلاء ترك مصر وهو فى مقتبل الثلاثينيات، وكان من مواليد باب الخلق، وفجأة يقول لك : مش فاكرك الكلمة دى بالأربى (بالعربى) من فضلك «كُسر» لى العشرة «دولار» (يقصد فك لى العشرة «دولار».. الأستاذ نسى لغة أهله وعشيرته).

وقد يظل الأستاذ أو الأستاذة من جمعية الانبهار فى حالة انبهار دائم، ويسلكون السلوك المتحرر ويطلبون منك أن تأخذ الأمور ببساطة Take it easy. ولا يعرفون العيب أو الحرام أو الممنوع.

وهناك من يدخل دائرة الانبهار، وبعد سنوات تبلى هذه الطبقة الزائفة ويدخل فى دائرة «الحنين».. قلبه وعواطفه «تحن» إلى وطنه وتقاليده وأهله. يبحث عن زوجة بنت بلده، أو يبدأ فى دورة قلق على أخلاقيات بناته فى مجتمع الإباحية الجنسية، يسافر كل سنة إلى الوطن حاملا الهدايا، عاشقا لكل لحظة يعيشها فى وطنه حتى الثمالة، يبحث عن زوج لإبنته من نفس ديانتته وحضارته.. ابن بلده.

وقد يظل فى دائرة الحنين سنوات عمره، وقد يقرر فى لحظة جريئة العودة إلى الوطن مهما كان الثمن.

وهنا يدخل فى دائرة الرفض، الرفض لكل ما هو غريب والمقارنة بكل ما هو شرقى وعظيم وأصيل وتاريخى، ويعيش بجسده فى

أمريكا، لكن روحه وجوارحه ترفرف عبر آلاف الأميال فوق أرضه ووطنه.. وطن أجداده. وقد يظل رافضا معذبا برفضه، لا يملك القدرة على اتخاذ القرار، لا بالانتماء الحقيقي إلى الوطن الجديد أمريكا، ولا بالرحيل والعودة إلى الوطن الأم، فيتحول إلى إنسان قانط حزين وتعتس.

يعيش في دائرة الاستنكار والشجب الدائم للحضارة الغربية. والدوائر تتداخل وتتعارض، وقد يبدأ مغترب بدائرة الاستنكار والرفض وينتهي به الأمر في دائرة الانبهار، وقد يبدأ مهاجر بدائرة الحنين ثم الرفض، ويظل يتأرجح كالبن دول بينهما. وقد يظل المهاجر يدور في دائرة واحدة مدى الحياة، فتطحنه داخلها في دوامة رهبة. لكن على كل الأحوال موقف المهاجر الذي يعيش مع أسرته وأولاده مستقرا يكون أفضل حالا من المهاجر أو المغترب الوحيد. وقد التقيت بعشرات من الفتيات المهاجرات الوحيدات، وكانت قصة كل واحدة تثير في نفسى الشجن والحزن.

معظم القادمات بمفردهن سعيًا وراء النجاح والاستقلال. إما حضرن من أجل الدراسة أو العمل أو لقراءة تربطهن بالأسرة أو حتى في زيارة وقررن الإقامة الدائمة و«الهجرة». وحياة فتاة شرقية بمفردها في الغرب من أصعب الامتحانات

الإنسانية فلا يوجد رقيب أو حسيب. الرقابة ذاتية تنبع من ضميرها،
وعليها أن تواجه نفسها قبل أن تواجه العالم من حولها.

هناك الفاقدة المتحررة وهذه تكون طموحاتها في العادة الارتباط
بخوافة أمريكي، وتبدى تأففها من الرجل العربى. وهى فى الغالب
تعيش دور المهاجرة مدى الحياة، تتبرأ من انتمائها العربى وتنتمى إلى
الحزب الديمقراطى الأمريكى، تفصل.. وتفصل تماما عن مجتمعها
الشرقى «المتخلف».

وهناك الرافضة العدوانية، الناقدة الكارهة للأمريكان وسنينهم.
وتسألونها لماذا لاتعودين إلى الوطن، لايمكن أن تعطيك «عقار نافع»!
فهى ناقمة خائفة متوقعة، من البيت للشغل وبالعكس، فى انتظار
جود «عربى»، وتمر السنوات وتجد نفسها فجأة «عانساء» وحيدة
بدون أسرة ولا أطفال ولا أهل ولا عزوة.. مهاجرة إلى نفسها.

وهناك التى رقصت على السلم، تتقاذفها مشاعر متناقضة فهى
تارة شرقية مائة بالمائة وتارة غربية مستقلة. تعيش حياة الازدواجية
الرهيبية التى تمزق النفس وتفتت الشخصية. وهذه النوعية من
المهاجرات أكثرهن معاناة وحساسية وصدقا.

تعلمت بعد أن دخلت وخرجت من دوائر الانبهار والحنين
والرفض فن الانتقاء.. انتقاء مايصلح لى ويضيف إلى، ولا ينتقص

منى. تعلمت السماحة وقبول الآخرين حتى لو اختلفت معهم فى الرأى
تعلمت المرونة والصبر، وتعلمت قبل كل شىء الاعتزاز بمصريتى.
حاولت إقامة جمعية صداقة أمريكية مصرية فى بيتى. وكنت أدعو
الزملاء والزميلات والأصدقاء والصديقات على «عزومة» مصرية فى
بيتى فى المناسبات والأعياد.

كانت فىكى وباتريشيا ونانسى، قد جربن الطعام المصرى مرات
عديدة وتعلمن كيفية طبق الفول المتين.

إلا أن الذوق والتذوق يختلف بصورة غريبة من بلد إلى آخر. حين
أقمت عزومة «كوارع ولحمة رأس» فى منزلى العامر، كادت تصاب
صديقاتى الأمريكيات بنوبة إغماء، ولم يصدقن أننا نطبخ «لحم
الرأس». ولم تكن فىكى وبات وحدهما، فالجزائر شخصيا أصابه
الفرزع حين طلبت منه الكوارع ورأس الخروف وتشكك فى أمرى
(فربما كنت عضوة جمعية سرية تمارس طقوس وحشية همجية).

على الرغم من أنه «يبيع» الكرشة للفرنسيين (دون تأفف) الذين
يصنعون منها طبقا فرنسيا لذيذا. وحين طلبت من الأستاذ جزار
الكبدة والقلب والكلاوى والحلويات والمخاضى. حلق فى ذهول،
وطردنى من المحل صارخا: أيها الوحوش.. أيها المجرمون، سأبلغ
جمعية الرفق بالحيوان عنكم.. إياك أن أرى وجهك هنا مرة أخرى.

على الرغم من أنني كنت عقدت معه صداقة وطيدة لشراء تموين
«بنتلى» وولدة «ممكن»، وكان أحيانا يرسل الهدايا من العظم «لممكن»
حتى «يرم» جنته ويتمائل للشفاء.

وياما ألقت فيكى «بالملوخية» فى الحوض معتقدة أنها طعام فاسد..
حاولت كثيرا إقناعها إن هذا هو منظر الملوخية فقط لكن طعمها لذيذ
للغاية، لكنها لم تقتنع أبدا.

وفى يوم من الأيام جاءت بكتاب تاريخ فى يدها وهى تصرخ:
مولوهية مولوهية..

-إيه الحكاية يافيكى؟

كان الكتاب عن مصر، ويحكى قصة الحاكم بأمر الله الذى منع
المصريين من أكل الملوخية..

كانت وثيقة اتهام للملوخية.. وثيقة دامغة، سألتنى: لماذا إذن
تصرين على طبخ «المولوهية» وتدعين أنك لاتستطيعين الحياة بدونها؟
وقد عاش المصريون بدونها حسب أوامر الحاكم بأمر الله.

قلت لها: يافيكى كان رجلا مجنوناً، كان عنده كراهية عنصرية
طائفية للملوخية، لأنه كان من الشيعة ويقال إن أهل السنة الكرام
كانوا يحبون الملوخية.

ثم إنه يعتقد أن بها منشطات!! فاهمة؟

ليس هناك ألد من الملوخية. باءت كل محاولاتى بالفشل وظلت فيكى تلقى بالملوخية كلما طبختها مؤكدة أنها طعام فاسد لونا ورائحة.

ويوم هربت لنا لفة فسيخ من القاهرة، وجلست مع الجناح المصرى ناكله، فى شم النسيم، كانت فيكى وأخواتها مصرات على إبلاغ الإسعاف. أولا لأن الرائحة خانقة، ثانيا لأنها كانت متأكدة أننا سنصاب بالتسمم حين أدركت طريقة عمل الفسيخ المصرى! وأكدت لنا أن هذا يدخل تحت طائلة «الطعام العفن السام».

أما الجارة فكانت على وشك إبلاغ الشرطة، حيث ظنت حين هاجمتها موجة الرائحة اللاذعة أن هناك «قتيل» فى بيتنا.

والمفارقات كثيرة.. الأمريكيون يعتقدون أن ذبح الحمام وحشية، فالحمام طائر «يطير» ولا يؤكل. ويتصورون أن كل أنواع الذبح همجية، ويصابون بالغثيان أمام منظر سمكة برأسها، حيث لابد أن تقدم السمكة «منزوعة» الرأس.

ومع كل الانتقادات لأكلاتى الشعبية المصرية، كنت أسخر منهم حين يتحدثون عن أكل الضفادع وعن عشقهم للأكل الصينى واليابانى.. وفيكى التى انتقدت الفسيخ المصرى كانت تعتبر السوشى اليابانى والسمك النيء من الأكلات «الأنيقة»!!

وفي المطاعم المكسيكية يقبلون على أكل «نبات الصبار»!
نعم ينظفون قطعة الصبار من الشوك (كما نجمع البامية تماما) ثم
يقومون بشوائه أو طهيه مع صلصة الطماطم الحريفة.
قلت لباتريشيا التي كانت تعشق الطعام المكسيكى: الصبار عندنا
نبات زينة أو يستعمل فى تقوية الشعر.. كيف بالله عليكم أمضغ قطعة
من المطاط اللزج!!!

وقد اكتشف علماء النفس فرعا جديدا هو علم «القرف»! أو شعور
الإنسان بالاشمئزاز والتقزز والقرف، وأكدوا أنه شعور مكتسب،
تتحكم فيه عناصر التربية والتعود والدين والبيئة. وقد أجروا
التجارب على قبائل أفريقية تأكل «مخ القروء» كانوا يصابون بالقىء
حين أرغموا على تناول الإسباجيتى. ومن شعوب شرق آسيا يأكل
التايلانديون الكلاب.

أصيبت فيكى بالإغماء حين ناقشنا هذا الموضوع، واحتضنت
«ممکن» وانتابتها نوبة بكاء عنيفة.

موسيقى الجاز.. وواو الجاز !

الثقافة في قاموس المواطن الغربى ليست مجرد كلمة، بل هى أسلوب حياة.

والثقافة مطلوبة، ومتاحة.

من المكتبة الضخمة التى تحتل عدة طوابق، إلى مسرح الغداء ومسرح العشاء ومسرح الشارع، وفرق الباليه، ودور السينما، ودور الأوبرا، والمسارح الكبرى، والمسارح الصغرى، والمتنزهات العامة. وحفلات المتنزهات العامة أصبحت من الرحلات المقدسة بالنسبة لى فى عطلة نهاية الأسبوع. وهى «فسحة» راقية ممتعة، بدون تعب الفسح الخلوية إياها!

تقام فى المتنزهات العامة حفلات الأوركسترا السيمفونى، وموسيقى الجاز الأمريكية (التي كنت أعتبرها من ضرب الحلل

النحاس، لكنى اكتشفت بالتدريب الاستماعى إنها موسيقى كلها شجن وإيقاع وعمق وعبقورية).

والاستمتاع إلى الموسيقى فى «الخلأ والعراء» من أجمل التجارب الفنية، حيث تتردد أصداء الموسيقى إلى عنان السماء وتتفاعل مع الطبيعة الساحرة (بدون مطر ورعد وبرق). والناس يحملون ساندوتشات الهامبورجرز والبتيذا والهوت دوج، ويقضون أمسية رائعة فى ضوء القمر مع بيتهوفن أو جيرشوين أو مع حلم ليلة صيف شكسبيرية. وتتزوج المتعة الثقافية مع المتعة الترفيهية الراقية.

كانت تعجبنى فكرة «الثقافة التى تشد رحالها وتأتى إليك، ويتحول الحى أو المدينة التى تقام بها حفلة المسرح المفتوح إلى مقر ثقافى ويعيش الكبار والصغار فى أجواء مهرجانية فنية ممتعة.

قدمتنى فىكى إلى نوعية مختلفة من الثقافة الشبابية «المورستانية». أو ما أطلقت عليه «السينما الطقسية.

فى هذا النوع من السينما الاحتفالية يحول جمهور الشباب الأفلام الموسيقية الغنائية التى تحظى بنجاح وإقبال منقطع النظير، إلى عادة وسلوك ومزاج شخصيا.

حيث تفقد قصة «الفيلم» فى حد ذاته أهميتها، وتتوارى خلف العلاقة المثيرة النابضة المتجددة بين المشاهد والعمل الفنى.

اختارت فيكى فيلم استعراض الروك المرعب». وهمست لى أن الشاب أو الشابة، قد يذهب لمشاهدة هذا الفيلم للمرة المائة.
- مائة مرة!!

صحت متعجبة، ده يحفظه عن ظهر قلب!!

قالت فيكى وهذا هو المطلوب إثباته، هذا ما يحدث بالضبط. إنهم يشاهدونه لأنهم يحفظونه عن ظهر قلب.. الجديد أن تجربة التلقى الحية التى اخترعها الشباب. تجعل المشاهد يشعر أن كل مرة فريدة فى نوعها عن المرة السابقة. كانت كلمات فيكى طلاس بالنسبة لى.. أكدت لى أنها تجربة مثيرة واسأل مجرب سينما طقسية، ولا تسأل متقف تعبان.

الفيلم من أفلام موسيقى الروك أند رول، فانتازيا سينمائية جعلت من قصة دراكولا المرعبة، دراما موسيقية ضاحكة ساخرة.
على باب دار السينما كان الشباب يقف طوابير تمتد لعدة كيلومترات فى الشارع. وقد بدا الطابور كأنه كرنفال أو حفلة تنكرية. شباب وشابات فى ملابس غريبة.. ملابس دراكولا بالعباءة الحمراء أو السوداء، القميص الأبيض والأنياب الصناعية (بلاستيك لعبة) يخيفون بها المارة وقد وضع البعض ماكياجاً مسرحياً مثيراً، والبئات فى ملابس الخدم الأنيقة (خدم شيك)، وشخصيات تنكرت فى زى

الحارس العجوز الاحدب القبيح. قلت لفيكى: هل هذه دار سينما أم
مستشفى أمراض عقلية؟!

علقت فيكى: إنه شيء رائع حقا Fantastic
- رائع.... رائع O.K أوكى.

وكنت قد تعلمت الاوكى الأمريكية الشهيرة، وأصبحت أستخدمها
عند الرفض والإذعان أكثر من الموافقة.

جلسنا على المقاعد، والمتنكرون يتهادون أمامنا أمام ستارة
السينما والصالة تصفق وتصفر.
اكتشفت فيما بعد.....

أن هذه مسابقة لأفضل زى تنكرى، وأن كل هذه الشخصيات هى
شخصيات الفيلم الذى نوشك على مشاهدته.

يعنى أصبح هذا الفيلم بالنسبة للشباب لعبة يقلدها، مثل الطفل
الذى يريد أن يقلد سوبرمان أو ميكى ماوس.

بدأ الفيلم الضاحك الباكي، المرعب الساخر. وكانت مفاجأة.
الجمهور من الشباب يحفظ عن ظهر قلب حوار الفيلم.

فلماذا سال البطل البطلة.

- ما هذا المنظر الرهيب يا حبيبتي؟

تجيب البطلة على الشاشة والتى لاتسمع صوتها لأن الجمهور يرد

معه في نفس واحد وهدير جماهيري.

- هذا قصر رهيب عجيب يا حبيبتي.

وهكذا جملة على الشاشة، وجملة في الصلاة. حتى صوت المؤثرات الصوتية، اصطدام سيارة أو أزيز باب قديم، أو تهشم لوح زجاج يشارك الجمهور «جماعة» في الأداء الصوتي ضاحكين.

مرة بوم بوم طاخ.. ومرة ش ش ش ش وهكذا.

وظهر على الشاشة الخادم الأحذب العجوز قادم من قلب الظلام في صمت رهيب وتوجس مريب.. وأضاء شمعة على الشاشة. في نفس اللحظة تلاللات صالة السينما بمئات الشموع (في الواقع أضاء الجمهور مئات الولاغات التي أتوا بها خصيصا لهذه الغرض) وتحولت القاعة في ثوان إلى تحفة مسرحية تنبض بالحرارة والجمال والوهج البديع.

وحين ظهرت البطلة في ثوب العرس الأبيض، وكانوا يلقون فوق موكب العرس حبات الأرز الأبيض (على الشاشة) فوجئت بشلال من حبات الأرز الحقيقية تتساقط فوق رأسى ورؤوس الحاضرين، حيث أخرج كل متفرج من جعبته «كبشة أرز» ونثرها في هواء القاعة في تراكب زمني مثير.. فهي تتساقط على الشاشة وعلى أرض الواقع.. أما أجمل لحظات العرض فكانت هي المقاطع الغنائية، حيث تنقلب

القاعة إلى كورال جماعى يصاحب الأداء الموسيقى والغنائى على الشاشة.

كانت لحظات عاصفة بالدهشة والثورة والحياة.
عرفت من فيكى أن من طقوس مشاهدة استعراض الروك المربع تتم فى حفل منتصف الليل فقط.

والثير للدهشة أن البناء الدرامى للفيلم يدور حول حكاية أسطورية مرعبة، طالما جعلت الدماء تتجمد فى عروق المشاهد (أيام زمان). كيف تحولت هذه الأسطورة إلى فيلم مسرحى ديسكو ساخر صاخب مثير؟!.. إنها تجربة تستحق التأمل.. ونوع من السينما الطقسية الحديثة.

وهذه نظرية جديدة فى الانبساط الفنى.. ونظرياتهم كثيرة وعجيبة وذوقهم أعجب.

والمسألة مسألة أذواق و«خلفيات حضارية». يعنى مايسستيفه الذوق المصرى قد لايبليه الأمريكى أو الهندى. والشرق شرق والغرب غرب. ليس فى الفن فقط، بل فى الطعام والشراب والملبس والسلوكيات الاجتماعية. إلا أن العنصر الإنسانى يظل دائما عالميا، ومن ثم فإن فيلم «شروط المحبة» الذى يتناول حكاية صراع أم وابنتها لمرض السرطان ما زلت تجعلنى «أتفحم عياط» أنا والكرة الأرضية جمعاء،

المشاهد إنسان سواء كان من أمريكا أو بلجيكا أو «المريخ».
هناك هوس أمريكي بأفلام وروايات الخيال العلمى. وما زالت لا
أنسى أول تجربة سينمائية لى مع فيلم عن الفضاء الخارجى.
كان فيلم «حرب الكواكب» الشهير الذى كسر الدنيا وحقق أكبر
الإيرادات، دعتنى صديقتى كلوديا مع صديقها اليهودى (كلوديا
مسيحية تهودت من أجل عيون الغرام.. أوكى). لكنها كانت يهودية
متعاطفة مع القضية الفلسطينية!

طبعا كانت دعوتها «أمريكية» مدفوعة، وكل مسئول عن تذاكره.
ذهبنا لمشاهدة فيلم «حرب الكواكب» الذى اعتبرته كلوديا
والحاضرون جميعا «نفر.. نفر» فيلما كلاسيكيا خالدا!
وكان الجمهور فى قمة الاستمتاع بأحداث الفيلم التى تدور على
كواكب آخر. (أوكى). والحدوتة بسيطة تدور حول الصراع الدائر بين
قوى الخير والشر. الأمير الوسيم النقى. أما شخصية دارث فادر
(الذى دخل التاريخ بسلامته)، وهو رجل طويل «كينج سايز» يرتدى
عباءة سوداء وقناعا صفيحا أسود، صوته رخيم مخيف (ذكرنى
بمحمد الطوخى).

وشوفوا الصدفة، يطلع الأمير الخير ابن الطاغية الشرير (ذكرنى
بأفلام حسن الإمام). ويستخدم الصراع بين الأب والابن بسيفوف من

أشعة الليزر! حول «القوة».

هذه القوة الخفية التى يستمدّها الإنسان من الإرادة والإيمان
(إيمان بالقوة.. واخذين بالكم)!

ومغامرات فى طرقات ضيقة وإنسان آلى مسخوط خفيف الظل وآلى
آخر غلبان وأخنف على الطريقة الأمريكية، ومخلوقات غريبة من
الفضاء الخارجى عيونها تطق شرار. والكبار يستمتعون بهذا الفيلم
قبل الصغار، أيما استمتاع، إلا مشاهد واحد فقط هو سعادتى القادمة
من حضارة سبعة آلاف سنة. اعتبرت إن هذا لعب عيال وفيلم أطفال،
وتخريف فى تخريف.

ذهلت كلوديا، تعجبت من رد فعلى، فهى ابنة حضارة حلم قهر
الفضاء الخارجى والخيال العلمى والطلوع إلى القمر، والأقمار
الصناعية ومركبات الفضاء. أبطال طفولتها هم السوبرمان الذى
يطير ويتفصح بين الكواكب بسرعة صاروخية، وجيمس بوند قاهر
الجبابرة.

أما أنا فابنة حضارة شايقة القمر ياليلى، والشاطر حسن وست
الحسن والجمال وروايات يوسف السباعى وإحسان عبدالقدوس
والقوة الحقيقية التى أؤمن بها هى شهادة لا إله إلا الله محمد رسول
الله.

و«القوة» المشار إليها في حرب الكواكب محاولة للبحث عن إله وقوى ميتافيزيقية غامضة.

حضارة تبحث عن بدائل للإيمان واليقين بالله سبحانه وتعالى.
ومن ثم قلت لكوديا:

- هذا الفيلم لا يعجبني ولا يلزمني «أنا أريد سينما تعالج قضايا سياسية وإنسانية (ما أنا برضه بنت الاشتراكية وتكافؤ الفرص وعدالة التوزيع) ورأسى محشواً بهموم شعوب العالم الثالث. القهر السياسى، الدكتاتورية، الفساد، الظلم، العدالة، الفقر، الصراع على السلطة.. أشياء من هذا القبيل.

قلت لكوديا: مالى وأنا وحرب الكواكب.. خليها لكم!
خلينا في حرب الرشوة، حرب لقمة العيش، حرب الجهل والمرض.
واكتشفت فيما بعد.....

أن حرب الكواكب، كانت رحمة وبنت حلال..
جاء الأستاذ «إى تى E.T هذا المخلوق القبيح من الفضاء الخارجى الذى لم أفهم أبدا سر اختيار منظره المثير للاشمئزاز كنموذج للشخصية الأسطورية فى الثمانينيات.

أصبح E.T لعبة العصر وفتح الباب على مصراعيه لأجيال سلاحف النينجا والديناصورات وحيوانات ضخمة بلعاب أخضر

وعيون جاحظة تثير الفزع والقرع. لكن إى تى عاوز يروح بلده. الوطن أعز وأغلى مايملك الإنسان. إنه الانتماء، الجذور، التاريخ الحضارة، كل مايفتقده المواطن الأمريكى. إى تى أصبح شخصية وطنية لأنه فتح جرح الانتماء التاريخى للوطن الأم.

الإنسان الأمريكى اليوم مازال يحدثك عن الوطن الأم. فهذا من أصل أيرلندى، أو من أصل أفريقى أسود، وهذا من أصل إيطالى، وذاك من أصل صينى أو مكسيكى، أو أسبانى أو هندى أو بورتوريكو.

هناك أحياء كاملة فى المدن الكبرى خاصة بجنسيات معينة وكأنها دول صغيرة قائمة وسط الأحياء الأمريكية.

فمن السود فى هارلم فى نيويورك، أو الحى الصينى أو حى البورتوريكو السلاتينى، دول صغيرة من الصعب أن تجد فيها ساكن أمريكى أبيض. وفى ولايات الجنوب الأمريكى وفى كاليفورنيا على الساحل الغربى تنافح اللغة الأسبانية اللغة الإنجليزية، ويطالب الأمريكيون من أصل أسبانى أن تصبح اللغة الأسبانية هى اللغة الأولى فى المدارس.

وطبعا الجنسيات غير الأوروبية الأنجلو ساكسونية المنشأ والأصل يعتبرون من الأقليات. لكن هذه الأقليات كبرت مع مرور

السنوات وبدأت تزحف ببطء لتأكل من نسبة السكان البيض، حيث أصبح الأمريكيون من أصل لاتيني يمثلون قوة إنتخابية عظمى.

وبمناسبة الاقليات التى أتعاطف معها (ما أنا أقلية) مازلت أتذكر يوم تقدمت بطلب تجديد الإقامة وكان علي أن أكمل استمارة معلومات

تضم خانة

الاسم :

السن :

الجنسية :

الجنس : ذكر / أنثى

الجنس - (العنصر) ضع علامة أمام الجنس الصحيح.

أبيض قوقازى - أبيض انجلوساكسونى - أسود - بنى أصفر (من أصل صينى) بمبى (؟؟) (هل يقصدون الهنود الحمر ياترى) - آخرون!

سألت الموظفة : ياأختى يا ذوق لو سمحت أنا لا بيضاء ولا قوقازية ولا ساكسونية ولا سوداء ولاصفراء ولا برتقالية ولا زرقاء ولا هندية .. يبقى أنا إيه؟

نظرت الموظفة الأمريكية القوقازية فى هدوء وامتعضت ثم تأملتني طويلا وتنهدت وقالت بعد حيرة:

- أنت... أنت.. أنت آخرون،

شعرت بإهانة شديدة.

رفضت هذا التقسيم العنصرى للجنس البشرى وقلت لها بحزم.

- هذه تفرقة عنصرية.

نظرت فى دهشة وأجابت:

- عموما القانون يعطيك الحق فى رفض الإجابة على هذه الخانة

وهذه بلد ديمقراطية.. نحن نخاف على مصلحتك وهذه معلومات

تهمنا من أجل أمنك.. افرضى وقع لك حادث، كيف نتعرف على

جنتك؟

قلت فى هدوء:

- أوكى، شكرا.. لن أوقع.. أنا لست «آخرون».. بدون هوية

ولاشخصية ولاطعم ولا لون ولا تاريخ ولا حضارة.

أنا نفرتيتى

عمرى سبعة آلاف سنة..

الجنس إنسانة

والجنسية مصرية.

حرب التاكسيات الأصفر !

.. اطلع يا أسطى على برودواى ..

قلتها بكل ثقة لسائق التاكسى الأصفر الشهير الذى نراه فى الأفلام فى نيويورك، ولم أكن أعرف طقوس ركوب التاكسى النيويوركى. فما كدت أمد يدى لفتح باب التاكسى، وإذا بى ألقى كتفاً قانونية طرحتنى أرضاً على رصيف نيويورك، والغريب أن الجانى فى هذه الجريمة الشوارعية، كان سيدة عجوز أنيقة نيويوركية مئة بالمئة.

ويتمتع راكب التاكسى الأصفر فى نيويورك بشروط محددة، أولاً : لابد أن يكون مفترياً أنانياً صفيقاً، ثانياً : من المسموح فى رياضة

ملاكمة التاكسيات استخدام شتى أنواع المصارعة الحرة والضرب المبرح واستخدام شنطة اليد بطريقة لولبية وضربة قاضية سريعة خاطفة في رأس الراكب المنافس، مما يجعله يلف حول نفسه وربما يصاب بارتجاج في المخ، المهم أن «ينط» المعتدى في التاكسي بأقصى سرعة. وكل هذه حركات لا بد من التدريب الشاق عليها للانتصار في معارك التاكسي الأصفر في شوارع نيويورك.

والسائق عادة يتمتع بحياد سويسرى ولا يهمله الطابور ولا الدور ولا الأولوية، المهم راكب وخلص، فالراكب الحقيقى هو الدولار! والصراع مع المرور في شوارع نيويورك، يمكن أن نطلق عليه صراع الجبابرة والقانون الذى يحكم الناس والسيارات هو الشراسة والإيقاع السريع اللاهث. ولما كنت من زوار نيويورك فقط، ولم ألتق تدريباً خاصاً للسير في الشوارع النيويوركية، وجئت من العاصمة واشنطن، بلد الشوارع الواسعة الرحبة والناس المؤدبة، رأيت الويل وسواد الليل في نيويورك حتى استطعت بمعجزة أن «أنط» في تاكسي أصفر، بعد أن أصبت بكدمات ورضوض في معركة الفوز بتاكسي. وجلست.. أأنهد وأشعر.. بنشوة الانتصار على محمد على كلاى وقلت: اطلع يا أسطى على برودواى.

نظر السائق البارد إلى... وكان الشارع محلك سر.. في حالة ازدحام

وتكدس مرورى رهيب، وكانت الإشارة حمراء.. توقف التاكسى لمدة عشر دقائق ولم يتحرك قيد أنملة من موقع غزوة الركوب المشهود، ولما تحول لون إشارة المرور إلى اللون الأخضر، نظر السائق البارد الذى اكتشفت أنه «جبل» أيضاً، وقال: عشرة دولارات! الرجل لم يتحرك سنتيمتراً واحداً بالتاكسى... قلت له : يامستر سواق... أنا عايزة أروح برودواى، شارع المسارح الشهير واحنا لم نتحرك من الإشارة.

أجاب السائق الجليدى : ما هو إنت فى برودواى! ياعسل! (كلمة على لسان كل من هب ودب)، لم أكن أعرف شوارع نيويورك بعد، لقد جعلنى السائق أجلس فى التاكسى لمدة عشر دقائق وطالبنى بالأتعاب، ولم يكلف نفسه أن يطلعنى على حقيقة موقعى على الخريطة النيويوركية.

دفعت الدولارات وأنا أستشيط غضباً. وعدت أدرجى سيراً على الأقدام (وأنا أتبع خريطة نيويورك) إلى استديو صديقتى التركية نائلة التى دعتنى للإقامة عندها فى نيويورك فى إجازة قصيرة. وكان يجب علىّ أن أحفظ عن ظهر قلب ميثاق الشوارع النيويوركية. أول هام، قالت نائلة، ألا أحمل أى عملة ورقية إلا العشرة دولارات المتفق عليها للطوارئ (فى حالة أن تشهر فى صدرى مطواة

قرن غزال)، وأستخدم دفتر الشيكات حتى في التاكسى! وثانى هام، أن أعلق حقيبة يدي حول الرقبة وعبر الكتف اليمنى، ثم أضع المعطف فوقها، حتى لا يخطفها أحد.

ثالثا : يجب أن ارتدى ملابس متواضعة جداً، بنطلون جينز (من المستحسن أن يكون ممزقاً) وبلوفر أو معطفا كحيان جربان عفا عليه الزمان، حتى أعطى الانطباع بأننى «مش لاقية للضى الأمريكى». وهذه لعبة نفسية للحماية الأكيدة فى شوارع من نار.

وممنوع منعاً باتاً ارتداء أى نوع من المجوهرات أو الساعات القيمة ولا حتى سلسلة ذهب يتيمة، لأن هذه الأشياء تثير طمع الطامعين!

يمكن استخدام مترو الانفاق مع الحرص الشديد، وأول قاعدة هى ركوب العربات المزدحمة فقط، الزحام ضمان وأمان من جرائم السرقة والنهب والاعتداء.

ومن الشروط الأساسية فى السير فى الشوارع النيويوركية إعطاء الانطباع بالشراسة والثقة.. أكدت لى نائلة أن الناس تخاف من بعضها، وكل إنسان مذعور داخله، فإذا رأيت شخصا مقبلا عليك من الجهة الأخرى، فلتكن واثق الخطوة تمشى شرساً.. ستجد أنه انكمش وتخطاك بسرعة.

وحين العودة إلى العمارة، على أن أتلفت يمينا ويسارا، ولا أفتح الباب إلا إذا كان الرصيف من حولى خاليا، ثم أدلف داخل العمارة بسرعة صاروخية. كل هذه الاحتياطات خشية أن يتبعنى مجرم، فيدلف خلفى إذا فتحت الباب على راحتى. وبعد دخول العمارة والاطمئنان إلى دق جرس الإنذار الأتوماتيكى بالشفرة الخاصة بسكان العمارة فقط، أتلفت يمينا ويسارا قبل دخول المصعد ... وأتلفت يمينا ويسارا قبل دخول الشقة.. وبعد دخول الشقة لابد من إغلاق الباب بمفاتيح ومزاليج «فشر سجن طرة» ... وبرضه ألتفت يمينا ويسارا!

نيويورك هى مدينة الخوف والاحتياطات والتحذيرات.. مدينة بلا قلب. حكى لى نائلة عن يوم أخذت «علقة موت» فى ممرات مترو الأنفاق، حين حاولت الدفاع عن حقيقة يدها التى خطفها مجرم عتيد «متعود» على الشد والجذب، فلما قاومته نائلة المعتوهة وتحدث قاعدة الاستسلام الزؤام.. قفز بكل قوته وثقله على قدمها الصغير، فهرسه هرسا وتفتت عظامها الضئيلة، ورقدت على الأرض تصرخ من الألم - الناس من حولها لا يعباون - حتى عثرت على ابن حلال (ليس من أصل نيويوركى طبعاً) قروى أمريكى ساذج ساعدها حتى باب المستشفى. وفى طوارئء المستشفى سألوها : عندك تأمين ؟ فلما

أسقط في يدها وهى وافدة كحيانة، وليس لديها تأمين صحى، رفضوا العلاج إلا إذا كان الدفع مقدماً.. لكن الصورة ليست بهذا السواد الكحل... كان هذا مستشفى تخصصياً جشعاً للغاية.. نقلت بعدها لمستشفى آخر قاموا فيه بعلاجها فى الطوارئ، وكفاية عليها! بعد كل هذه الحكايات المشرقة عن شوارع نيويورك كان لابد أن أستمع بإجازتى الثقافية..

الثقافة على الطريقة النيويوركية تعنى الدفع أو الطابور .. وكان طريق الطابور هو الطريق الاقتصادى.. وهذا يعنى الوقوف أربع أو خمس ساعات للحصول على تذكرة رخيصة.

ومن خفايا برودواى السوق السوداء، حيث تباع فيها تذاكر مسرحيات برودواى الناجحة وكأنها مخدرات.. فالحصول على تذكرة فى مقعد ممتاز فى مسرحية استعراضية ناجحة حتى لو كانت تقدم منذ عشر سنوات، من أحلام عشاق المسرح. لأن المسارح محجوزة مقدماً لمدة سنة من الأفواج السياحية القادمة من أنحاء الولايات المتحدة، فالسائح الأول فى أمريكا.. أمريكانى! ولأمثالى من الفقراء والمساكين والطلبة المثقفين يوجد «التيكترون»، وهو كشك تذاكر أنيق فى قلب برودواى. يبيع التذاكر فى نفس يوم العرض بنصف الثمن (وهى التذاكر المرتجعة)، وكانت هذه هى ضالتي

المنشودة للدخول من باب جنة المسرح الأمريكى التجارى المذهل.
والوقوف فى الطابور لعدة ساعات مفيد للغاية، حيث يتعرف
الناس على بعضهم البعض ويدلون بالنصح حول أفضل مسرحية
وأفضل عرض ويتبادلون النكات والساندوتشات، مما يعتبر «فسحة
ثقافية على الرصيف».

ولقد أصبحت من أشد المخلصين للمسرح الأمريكى، وكنت أقود
سيارتى فى عطلة نهاية الأسبوع لمدة أربع ساعات ونصف من
واشنطن إلى نيويورك، وأقف أربع ساعات على قدمى فى الطابور، حتى
أحصل على تذكرة متواضعة، ثم أعود أراجى بالسيارة أربع
ساعات ونصف أخرى إلى واشنطن.

ترى.. ماذا يستحق هذا العناء والجهد المضى والكفاح الثقافى؟
الفن طبعاً.

وعلى مدار سنوات، ظلت رحلة الثقافة جزءاً لا يتجزأ من حياتى
الأمريكية، حيث أدمنت المسرح الاستعراضى الأمريكى.
وإذا كان الإنجليز هم عباقره فن المسرح، فإن الأمريكين هم
سادة المسرح الاستعراضى.

ومازلت أذكر المسرحية الغنائية الاستعراضية «سوينى تود»..
وكنا قد تعلمنا أن المسرحية أو الفيلم الاستعراضى، عادة ما يدور

حول قصة طريفة وحدوتة لطيفة، لا أبعاد اجتماعية ولا معاميق فلسفية، لأن قالب الاستعراض من موسيقى وغناء ورقص وإبهار لا يحتمل الموضوعات التراجيدية الجادة. يعنى معظم أفلام عبدالحليم حافظ وفريد الأطرش ومحمد فوزى الغنائية كانت في إطار الأساس الدرامى للفكر الاستعراضى أو كما يقول الأمريكان Boy Meets Girl أو ولد يحب بنتا.. ويعيشان في التبات والنبات، ويخلفان صبيانا وبنات وتوتة توتة خلصت الحدوتة.

لكن الفن لا يمكن أن ينفصل عن المجتمع، حتى لو كان «قطاع خاص وتجارى»، بالمناسبة المسرح الأمريكى عموده الفقرى هو القطاع الخاص.

كانت مسرحية سوينى تود «Sweeny Todd» من المسرحيات الموسيقية التى مازالت محفورة فى ذاكرتى. المسرحية تدور حول قصة ثار «بايت» بين حلاق القرية سوينى تود والمجتمع الشرس الفاسد. الصراع بين قوى الخير والشر، حين يتصدى الإنسان الطيب للدفاع عن نفسه والانتقام بيده، لأن القانون لم يحصل له على حقوقه.

فبعد أن خطفوا ابنة «سوينى تود» واغتصبوا زوجته، يقرر سوينى الانتقام الرهيب. ويذبح زبائنه بموسى الحلاقة وهم

جالسون مستسلمون تماماً ليده «الخفيفة». وتسقط الجثة عن طريق ممر سرى إلى «فرن الخبز» في الدور السفلى، حيث تقوم الفرانة أنجيلا لانزبرى بعمل الفطائر المحشوة باللحم من اللحم البشرى! (كل هذا بالغناء والرقص والفرفشة).

هذه الصورة الكثيبة المرعبة المقززة المثيرة للاشمئزاز تحولت إلى مسرحية استعراضية رائعة، وصدقوا أو لا تصدقوا كوميدية ضاحكة. «وهم يضحك وهم يبكي»!

ومن المفارقات الغريبة أن البطل السفاح ينتقم من العدالة الزائفة الفاسدة، لأن الذى انتهك عرضه وخطف ابنته هو القاضى، ونحن أمام موقف إنسانى محير .. حين يعجز القانون عن حماية الإنسان، فيقرر الإنسان أن يكون هو القانون ويمسك بيده بمقاليد العقاب والثواب.. والانتقام الرهيب. وهذه هى نفس قصة الكوميديا السوداء المصرية «ريا وسكينة»، مما يجعلنى أتساءل: خير يا جماعة، هل الفساد ظاهرة عالمية فى سلك القضاء، أم أن قضية العدالة والقصاص وسيادة القانون معضلة إنسانية متكررة فى كل زمان ومكان؟

وفتحت «سوينى تود» الكوميديا السوداء النكدية الباب على مصراعيه لهذه النوعية القاتمة السخرية من المسرح الاستعراضى. وشاهدنا «شبح الأوبرا» وهى من أعظم المسرحيات الموسيقية التى

تحكى قصة غرام مؤلف موسيقى مشوه الوجه يضع قناعا على وجهه طوال المسرحية وحين يكشفه لنا.. يا حفيظ يا مغيث نرى براعة الماكياج فى اختراع البشاعة مجسدة شحما ولحما.. والمؤلف المشوه يجوب كواليس الأوبرا ويعيش فى سرية مطلقة يؤلف الموسيقى للبطلة الجميلة التى تعتقد أنه شبح موهوب!!

ناهيك عن الديكورات الرائعة والتكاليف الرهيبة، إلا أن معضلة أن يقبل نجم معروف دورا يخفى فيه طلعه البهية وراء قناع ومن وراء قناع مخيف ومرعب شيئا يدعو للتأمل! ترى هل يقبل أى نجم من نجومنا مثل هذا الدور الرائب من أجل الفن ويضحى بحلاوته وجماله فى عين الجمهور؟! فشر!

وإذا كان المسرح يعكس المزاج والمناخ السائد فى المجتمع من عنف وجريمة ونفوس مريضة فلا يمكن أن يتجاهل الفن المرحوم إرنست وحزب المرحين. كانت من أنجح المسرحيات الاستعراضية على خشبة مسارح برودواى مسرحية La cage aux folles وهو عنوان فرنسى لفيلم فرنسى تحول إلى مسرحية استعراضية ويدور حول قصة حب اثنين من المرحين أمام مجتمع الأخلاق والفضيلة.. ومن المفروض أن تنصب السخرية على الأستاذ المرح وصديقه، لكن المنطق الأمريكى يسخر من مجتمع الفضيلة والأخلاق «المعقد» ويصفق

لرجال في ملابس نساء ويتعاطف مع البطلة «عفوا.. البطل في زى بطلة.. حاجة تلخبط»!

ومن اللحظات التي لا أنساها في نزواتي المسرحية، مسرحية «أطفال... أقل شأنًا» وتتناول قصة فتاة صماء بكاء وأستاذها الذي أحبها وعلمها وساعدها على مواجهة عجزها وقهر الواقع الأليم. وهي مسرحية تراجيدية تمس شغاف القلب من فرط إنسانية الموضوع، وخاصة أن البطلة كانت صماء بكاء في الواقع.

وعندما انسدل الستار وقف جمهور الحاضرين يصفق تصفيقاً حاداً لم أشهد له مثيلاً من قبل.. والبطلة الصماء التي لا تستطيع أن تسمع هدير التصفيق، تحيي الجمهور وقد ارتمت على خشبة المسرح تمتص تردد ذبذبات صوت التصفيق الذي لا تسمعه «وكانت هذه الوسيلة التي حاول بها الأستاذ توصيل الإحساس بالموسيقى لطالبته الصماء في المسرحية».

والجمهور يصفق في جنون ودموع البطلة تغرق خشبة المسرح.. دموع الفرح والنجاح والدموع تغرق وجهي ووجوه من حولي من فرط التأثر بهذا المشهد الإنساني المهيّب الرهيب.

خبطة "الخلاص"

يوم الأحد صباحاً.. يوم الإجازة وعطلة نهاية الأسبوع المقدسة
حيث يذهب المتدينون الأمريكيون إلى الكنيسة.

وهناك فئة كبيرة جداً من الأمريكيين الملتزمين دينياً والمواظبين على
رحلة الأحد الصباحية الأسبوعية.

والتلفزيون يشارك في هذا المهرجان الدينى الأسبوعى طوال
ساعات صباح الأحد.. وإياك أن يظن أحد أن المسئولين عن التلفزيون
جماعة من المؤدبين المتدينين المخلصين.. فالتلفزيون الأمريكى غير
تابع للحكومة بل شركات خاصة تهدف إلى الربح وإلى الربح تهدف.
وهذه المحطات تؤجر الهواء صباح الأحد لكبار رجال الدين

المسيحي.. وبالملايين «يعنى إعلان مدفوع الأجر».

وإياك أن يظن أحد أن رجال الدين يدفعون هذه الملايين حبا في الفضيلة والأخلاق والالتزام الدينى.. فرجال الدين أيضا يهدفون إلى الربح.. وإلى الربح يهدفون.

كنت أجلس أمام التليفزيون في زهول صباح الأحد، أستمع إلى خطبة «الأحد» التى تحولت إلى عرض مسرحى عجيب، يتحول فيه رجل الدين إلى بائع أرثر ميللر المتجول. يبيع الحلم ويبيع الأمل ويبيع الثواب ويبيع المستحيل لملايين المشاهدين.

القس من هؤلاء «يرتدى بدلة أنيقة طبعا» يظهر على خشبة المسرح بصورة درامية والموسيقى تعزف والكورال يولول والحاضرون يصفقون للنجم الدينى... فشر عادل إمام.

ويبدأ القس فى إلقاء خطبة مثيرة، يبكى ويضحك ويصرخ وينادى ويهمس ويجرى من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. استعراض مثير لأفكار متخلفة مغموسة فى العسل.

ويدعو القس «الكفرة» إلى طريق الخلاص.. ويعد الإنسان التعبان الزهقان المطحون بالخلاص على يده.. وتأتى صرخات من الجمهور.. أنقذنى يا يسوع خلصنى.. وتسرى عدوى الهستيريا الدينية بين جمهور الحاضرين. ثم تأتى اللحظة الحاسمة.. حيث يأتون بمعجزة

ومقعدين «ومكسحين». «على كرسى بعجل» فيمد القس كفه ويدفع له العاجز أو المريض على جبهته ويقول له سوف أخلصك من قيودك وهمومك ومع كل «خطبة» يطرح فيها الضحية أرضاً، ثم فجأة يقف الكسيح على قدميه ويصرخ.. معجزة.. معجزة لقد شفيت، ويجرى على المسرح مثل الرهوان والناس تبكى وتصفق وتولول :

هالولويا.. هالولويا...

الأعمى يفتح، والأصم يسمع، والكسيح يهرول .. ومعجزة وراء معجزة «بخطبة» واحدة من يد القس الذى ما يلبث أن يقول:

شايفين المعجزات.. والعظمة.. أرسلوا التبرعات فوراً.. حالاً.. فى التو واللحظة.. أمسك التليفون وتبرع بالبطاقة الائتمانية، فيزا، أمريكان اكسبريس.. أرسل شيكاً.. المهم تبرع دلوقت حالاً.. ساعدنا.. نحن فى حاجة إلى أموالك حتى نُنقذ البشرية. وتنزل على الشاشة أرقام تليفونات التبرع، والقس المحترم يحث المشاهد على التبرع الفورى.

ملايين الدولارات يجمعها أصحاب «خطبة الأحد» بحجة إنقاذ البشرية من آثام الحضارة الحديثة.. يبيعون الخلاص الوهمى بالدولار. ومن ثم تحول الدين على شاشة التليفزيون إلى مُنتَج يباع ويشترى ويعلن عنه مثل المعلبات المحفوظة.. والقس الشاطر هو الذى يحظى بتعاطف وتبرعات أكثر. والغريب أن الناس يصدقون أن هذا

زمن المعجزات التليفزيونية على الرغم من أنها مسرحية رديئة ساذجة
مدبرة مع سبق الإصرار والترصد.

التطرف.. تطرف في كل زمان ومكان، ولا يوجد أسوأ من مدعى
التدين وممن يستغل الدين من أجل الثراء وجمع الأموال.. ويأمرنا
في الصحف عن فضائح هؤلاء القسس من نجوم صباح الأحد وقد
ثبت أن بعضهم من اللصوص والنصابين والأفاقيين، سرقوا أموال
الفقراء والسذج بالخدعة وبيع الوهم ليركبوا الطائرات الخاصة
ويملكون القصور والأراضي الشاسعة ويعيشون حياة الأباطرة
والملوك.

ومن عجائب صباح الأحد المصارعة الحرة..
أول مرة شاهدت فيها مباراة على شاشة التلفزيون «وهبد» فيها
المصارع زميله وألقى به بكل شراسة على أرض الحلبة ثم انقضى
عليه يلوى ذراعه حتى الكسر ويخنقه حتى النزاع الأخير، صرخت:
- يافيكى.. الحقوا الرجل سيموت.. إنه يقتله عينى عينك.
أصابتنى حالة من الذعر ومن رياضة القتل العلنى، والناس
تصفق وتصفر مشجعة ومهللة.

ضحكت فيكى ملء شذقيها قائلة:
- لاتنزعجى يا عزيزتى، هذه أشياء متفق عليها.. إنها تمثيلية

محبوكة حتى يتأثر السذج من أمثالك.. تمثيلية تحكمها الرهانات
والمقامرة على الفائزين وتذاكر تباع بالآلاف ومباريات تذاق بملايين
الدولارات.. إنها تجارة في تجارة.
الدين تجارة، والرياضة تجارة، وطعام القطط والكلاب تجارة..
ماذا بقى لنا إذن من الإنسانية؟

الحادثة التي جرت

كانت مفاجأة لا تنسى..

استيقظت في الساعة صباحاً من يوم شتاء واشنطوني بارد..
فإذا بالأرض مفروشة ببساط أبيض ناصع شاهق.. مشهد
رومانسى رائع.

كان الثلج يغطي كل شيء بعباءة قطنية بيضاء مأكرة ساحرة..
تسمرت أمام النافذة مبهورة بذلك النقاء الممتد، وصوت مذياع النشرة
الجوية يحذر بأن الأمور ستزداد سوءاً خلال ساعات وينصح بعدم
محاولة الخروج من باب البيت إلا للضرورة القصوى..
المدارس والجامعات أغلقت أبوابها اليوم وانحنت في أدب جم أمام
العاصفة الثلجية.

وعلى الرغم من أن درجة الحرارة كانت خمس عشرة تحت الصفر،
إلا أن درجة حرارة ضميرى المتيقظ كانت في درجة الغليان. قررت
الذهاب إلى المكتب من باب الالتزام والانتظام، والشعور بالمسئولية..

وتهورت

واكتشفت فيما بعد

أن قيادة السيارات أثناء عاصفة ثلجية لها أصول وقواعد. لكن
بعد إيه؟ كنت أقود سيارتي بحرص شديد، فالجليد تحت عجلات
السيارة مثل قشر البيض، أو القيادة على لوح من زجاج.. وكان موكب
السيارات على الطريق السريع يعد على الأصابع.. السيارات تسير
الهوينى ولا بد أن يكون وراء كل سيارة قصة، لا بد أن يكون طبيباً أو
مجنوناً مخبولاً مثل كى يقود سيارته في، مثل تلك الظروف الجوية
المرعبة.

ولم أكن أعرف ولا عندى فكرة عن الحيل اللولبية في فن القيادة
على الطرق الجليدية.. وفجأة وجدت السيارة تدور وتلف و«تبرم» بى
كما النحلة وأنا على عجلة القيادة في وضع «دوخينى يالمونة»..
السيارة تزلزلت على الجليد وفقدت القدرة على التحكم فيها،
والسيارة تدور بسرعة جنونية صاروخية حول نفسها، لحظتها
«شفت الموت بعينى».. وأشهد أن لا إله إلا الله وإن لله وإن إليه

راجعون.

وطاخ في السيارة التي أمامي.. التي دخلت بدورها في التي أمامها وهكذا.. دخلت قافلة الهويني في بعضها، وفي هذه اللحظة المشهودة (اكتشفت فيما بعد) أنه إذا ضغط الإنسان بقدمه على «الفرامل» فهذا يعني أن السيارة ستمعن في العند وتنزل على الجليد ولن تتوقف... وتخلوا سرب السيارات المتزحقة المتداخلة ولا «أجدع» لعبة ملاه مثيرة، والسيارات تعانق بعضها بعضا حتى توقف الركب تماما، بعد أن كاد قلبي أن يتوقف.. وجدت الدماء تسيل من جبهتي ومن أنفي، لكن لساني كان يلهج بالشكر.. الحمد لله.. الحمد لله جت سليمة. من خلف زجاج النافذة ظهر فجأة وجه متجمد جليدي لضابط شرطة كما انشق الجليد عنه، لا أدري متى ومن أين جاء! سألني في هدوء :

- انت أوكى؟

- أوكى والحمد لله يا حضرة الضابط.. قدر ولطف.

- هل أطلب سيارة إسعاف؟

- لا.. الحمد لله يا حضرة الضابط.. أصل أنا عندى شغل

ومستعجلة.. قدر ولطف.

- طيب.. الرخصة لو سمحت!

- رخصة.. الحمد لله يا حضرة الضابط.. اتفضل.. قدر ولطف.

- المخالفة الأولى السرعة أكثر من ١٥ كيلو من الساعة.
- سرعة .. ده أنا أقود السيارة كما السلحفاة يا حضرة الضابط،
سرعة ومخالفة.. الحمد لله قدر ولفظ.

- المخالفة الثانية الإهمال واللامبالاة في القيادة.
- إهمال ولامبالاة.. تشكر يا حضرة الضابط.. قدر ولفظ.
ومضيت في طريقى تاركة خلفى سرب السيارات المتعاقبة.. وأنا
أسوق على مهل.. أسوق.. وما بين طرفة عين وغمضتها... ولم يمض
على الحادث سوى دقيقة، دارت السيارة وبرمت كالنحلة مرة أخرى
بسرعة هيسيرية ثم تزحلق في الاتجاه العكسى واتجهت بسرعة
كونكورديه نحو السيارات المقبلة... وبوم طاخ.

- انت أوكى؟

- كم مخالفة هذه المرة يا حضرة الضابط.. هات من الآخر؟
ويبدو أننى «صعبت» على حضرة الضابط، فأكد لى أنه لامخالفات
هذه المرة وأنه سيصحبنى بسيارته حتى باب المكتب.. وختم حديثه
قائلاً:

إلى اللقاء فى المحكمة.

عندى قضية ..

المسألة ليست مجرد مخالفة، بل تهمة، جريمة يحاكم عليها

القانون. الإهمال في القيادة، تهمة ومحكمة.. وحكم وسوابق..
وامصبيته!

نصحتنى «فيكى» أن أرتدى حلة أنيقة أمام المحكمة، فلا بد من
إضفاء معالم الاحترام والمسئولية على شخصيتى أمام سيدنا
القاضى. والغريب أن «السفاح من دول» يكون قتل له عشرين قتيلا
وأكل عظمهم بعد لحمهم، ويصر المحامى على أن يحضر إلى المحكمة فى
قمة الأناقة، لأن سيكولوجية المظهر الأبهة يحسب لها ألف حساب!!
منطق لم أقتنع به.

ما علينا.. تأنقت لسيدنا القاضى ودخلت المحكمة بقدى اليمنى
وكنت أرتعد رعباً.. أنا متهمة.. وعندى قضية.
فى قاعة المحكمة جلست أضرب أخماسا فى أسداس، همس لى
جارى:

- تهمتك إيه؟

- مرور يامستر.

- عندك محامى؟!

- محامى؟ (وهل يستحق الموضوع محامى) .. لا يامستر

معنديش.

- أنا محامى.. اشرح لى له التهمة بسرعة وأنا حاضر معك.

- حاضر عن المتهمه (هو انت اسمك إيه) يا حضرات المستشارين
وهكذا أصبح عندى الآن - قضية ومحام..

وجدت حضرة الضابط الذى اضطهدنى وظلمنى وجرجرنى إلى
المحاكم يقف إلى جانبى أمام سيدنا القاضى ويقسم بالله العظيم بأن
يقول الحق ولاشئ غير الحق.

سأل سيدنا القاضى: هل معك محام ؟
هرع المستر محام إلى المنصة وهو يؤكد : حاضر عن المتهمه
واكتشفت فيما بعد

أن المحامى «الاكسبريس» يلتقط أمثالى من الغلابة والمساكين
بدون سابق معرفة ويتولى القضية فى دقائق.
اعترضت بشدة، قلت والدموع تنهمر على وجهى:
- مظلومة يابيه مظلومة.

أنا لا أريد محامياً، أنا أريد أن أدافع عن نفسى بنفسى، ومالك
جلدك مثل ظفرك (ولم يفهم القاضى الترجمة الرديئة لهذه المقولة وما
علاقة الأظافر بالقضية)..

مظلومة ياسعادة القاضى، الطريق كان مثل المرآة المشطوفة، قشر
بيض ياسعادة القاضى، والسيارة تزحلق .. بنى آدم يتزحلق على
قشرة موزة، ألا تريد من سيارة أن تتزحلق على قشرة بيضة؟! وهل

ينزلق الإنسان بخاطره.. مقدر ومكتوب، قسمة ونصيب يساعد
القاضى. وأنا أعرف الطريق الصحراوى والطريق الزراعى والطريق
المسدود، لكنى شرقية صحراوية قاحلة، لم أتعرف على الثلج إلا فى
الثلاجة من قبل، لم أسعد بمقابلة جليدية ولم أتشرف بالسلوكيات
الباردة. أنا قروية ساذجة وافدة من درجة حرارة الظلم والاضطهاد
وحضرة الضابط ظلمنى.. طيب أسأله كده.. هل كان من الممكن أن
ينزلق هو الآخر أم لا.. قسمة ونصيب يابيه.

ظل سعادة القاضى يفكر، ثم سأل حضرة الضابط عن حالة
الطقس فى ذلك اليوم الأغبر، ثم سأله (صدقوا أو لا تصدقوا) سؤالى:
- هل كان من الممكن أن تنزلق سيارتك فى نفس الظروف الجوية
حسب قانون الاحتمالات أم لا؟ ولو حدث، هل يمكنك التحكم فى
السيارة؟

أجاب حضرة الضابط المفترى بصدق شديد (حلف اليمين
ببقى) بأن المسألة قسمة ونصيب وأنه كان من الممكن أن يحدث له ما
حدث لى بالضبط، لأن الظروف الجوية الثلجية غير مضمونة
العواقب. وعلى الفور.. نطق سعادة القاضى بالحكم:
- براءة.. تسقط التهمة عن المتهمه ويطلق سراحها!
ويحيا العدل!

نظرت إلى المحامى الحشرى فى عجرفة وأشرت إلى أظافرى ..
وكررت الترجمة الرديئة.. ماحك جلدك مثل ظفرك.. يامستر!
يومها شعرت بأننى كسبت البريمو، طعم العدل أعظم من مليون
دولار بالفعل.

علقت «فيكى» : مبروك البراءة.. ماشعورك اليوم؟
- أشعر كما لو كنت «مليون دولار»

I Feel Like a Million Dollar

هذا القول الأمريكى المأثور اكتسب معنى أعمق وأعظم، لأننى اليوم
تذوقت طعم الحق والعدل وهو أجمل مليون مرة من مليون دولار!

رقم الإيداع ١٦٤٩ / ٩٥

I.S.B N 977- 09 - 0264 - 0

مطابع الشارقة

الفاخرة ١٦ شارع حواد حسي - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤
سرويت ص ب ٨١٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣